



طبعات كتابي

الآلة عطشى!

الترجمة الكاملة لتحفة
أناطول فرانس



اثنان قول فرانش:

الآلهة عطشى!



LES DIEUX ONT SOIF

PAR

ANATOLE FRANCE

الثمان ١٢ قرشا

مجموعة كتابي

(الكتاب الشهري لتلخيص الكتب العالية)

صدر منها ستة وتسعون كتابا ، يضاف اليه كتاب جديد في
اول كل شهر .

مطبوعات كتابي

(الترجمة الكاملة الآمنة لشوامخ الكتب العالية)

صدر منها أربعة وستون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان
على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيجاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء
الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

- تطلب الأعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابي » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة
- الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابي في ج.ع.م والسودان والسعودية
والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصا
البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلدان
اللاشترالك السنوي ١٨٠ قرشا سنويا خالصا اجر البريد المسجل .
- وان شاء ان ترسل له الأعداد بالبريد الجوي المسجل ، ان يدفع
فوق الرسوم .
- ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات في مصر بالن بريد عادي .
وللمشتركين في البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك
القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ١٠ مليما ،
على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها في مصر . علما بان سعرها في مصر
٣٧ مليما . ومن الممكن ان في السودان ارسال القيمة بحسالة بريدية .

مطبوعات

كنايات

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالية

يصدرها : حلمي مراد

الكتاب الرابع وأستون

الآلهة عطشى

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

الإدارة : عمارة الجندول - ١٤ شارع ٢٦ يوليو - بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

ثورتنا البيضاء

من حقنا ، بل من حق ثورتنا علينا ، أن نقف في عيدها العاشر لحظات ، عند الارتفاع الذي بلغناه .. فنحن لأنسير الى الامام فحسب ، بل نحن نسير صعدا الى الايام ، على سفوح المجد ، في طريقنا الى الذروة ..

ومن ارتفاعنا الحالي ، نطل على منبسطات الزمن .. لا الزمن القريب ، الذي بدأ بعمر الثورة فحسب، بل الأجيال والقرون المتعاقبة ، منذ بدء التاريخ .. واينما سرحننا بصرتنا ، لا تكاد نجد ما يشبه ثورتنا ..

وليس هذا من قبيل المفالة أو المبالغة ، أو الفرور ، ولكنه من وحى الحقيقة الخالصة ..

لقد شبهوا ثورتنا يوما بالثورة الفرنسية .. فالثورة الفرنسية كانت انتفاضة على الملكية ، في وقت كان العالم لا يزال فيه يؤمن بأن للملوك حقوقا مقدسة .. وكذلك كان ثورتنا : انتفاضة على الملكية ، في وقت كان الشرق - والشرق العربي بوجه خاص - يرى فيه الملكية نظاما راسخا ، مسلما به ، تأصلت جذوره فلا سبيل الى اجتثاثه ..

وكانت الثورة الفرنسية هبة اباء على حكم فاسد ، استشرى فيه النفوذ الاجنبى .. وكذلك كانت ثورة ٢٣ يوليو ..

وكانت الثورة الفرنسية نهضة الشعب للظفر بحقوقه التى اغتالها حكم قوامه الاستبداد والبطش والاقطاع .. وكذلك كانت ثورة ٢٣ يوليو ..

حتى النتائج كانت تدعم هذا التشبيه .. فلقد بعثت الثورة الفرنسية صيحة الحرية توقظ الشعوب الفافلة في أوروبا ، وخارج أوروبا .. وقد بعثت ثورة ٢٣ يوليو صيحة الحرية في الشرق - والشرق العربي بوجه خاص - والقارة الأفريقية .. وكانت ثورة العراق ، وثورة السودان ، من الاستجابات لهذه الصيحة ..

ولقد تحالفت الدول على الثورة الفرنسية ، فحاولت أن تخنقها بالحصار الاقتصادي ، وأن تقتلها بزحف الجيوش الأجنبية ، وأن تؤلب الشعب عليها بالأساليب الدنيئة .. بحرب الدعايات والأراجيف ، وبالمؤامرات والدسائس التي استغل فيها الأمراء والاقطاعيون الذين هربوا من أضواء الحرية الى الخارج ..

وكذلك فعلوا بثورتنا ..

ومع كل هذا الشبه ، فان ثورتنا أعظم من الثورة الفرنسية ..

أعظم لأنها قامت وفي بلادنا - فعلا - قوات أجنبية ، لم تهبها ثورتنا أو تخشاه ، بل انها لم تلبث أن طردتها .. **وأعظم** لأنها استعانت بالحب والتفاهم ، فلم تستحم في الدماء ، ولم تلتف في غلالات الارهاب ، كما فعلت الثورة الفرنسية ..

وأعظم لأنها اخذت ترفع صرحها - منذ البداية - على أسس من التخطيط ، وارساء القواعد المتينة ، فلم تصب بالنكسات ، ولم تتعرض للانهياب ، ولا للتنكر لمبادئها التي قامت عليها .. كما فعلت الثورة الفرنسية ، التي أوجت الى زعمائها بالفرور الذي أطاش صوابهم ، فبدلا من أن يدعموا مبادئ العدالة ، والحرية ، والمساواة ، اذا بهم -

في العام الاول من عمر ثورتهم - يقرضون الارهاب والبطش .. واذا بهم - بمجرد ان تولى نابليون الامر - يتجهون الى الفزو والفتح باسم التحرير ، لينشئوا على ذلك امبراطورية استعمارية ، يحاول الفرنسيون اليوم جاهدين ان يتشبثوا بآخر أجزائها ..

ثم ان ثورتنا أعظم من الثورة الفرنسية ، من حيث ان الاخلاص للمبادئ ، والتفاني في الرسالة ، والحرص على مصالح الشعب والوطن ، صرفت القائمين بالقيادة عن المصالح الشخصية التي فرقت بين قادة الثورة الفرنسية ، وجعلتهم ينقلبون بعضهم على بعض ، وينهش بعضهم بعضا .. فراح دانتون ، ومارا ، وروبسبير ، وغيرهم ، لينفصح الطريق أمام المفامر الكورسيكى : نابليون بونابرت .

من هذا كله نرى الأدلة على أن ثورتنا بيضاء .. ومن أجل هذا كله ستعيش ثورتنا ، وتنمو ، وتثمر .. ولن تكون كالثورة الفرنسية التي يتنكر لها أبناؤها اليوم .. بعد ١٧٠ عاما فقط من قيامها .

ولعل الرواية التي تقدمها لك اليوم ((الآلهة عطشى !)) ، تعطيك صورة من الثورة الفرنسية على حقيقتها - كما رسدها الكاتب الفرنسي الأشهر ((أناتول فرانس)) - وانت تبعم بمباهج العيد العاشر لثورتنا الموفقة الباقية .. وكل عام وثورتنا بخير .. وتقدم .. وتوفيق .. ومجد !

المؤلف في سطور

« أناتول فرانس » هو الأبيسم الأدبي لقطب من أقطاب الأدب الفرنسي الحديث ، هو « جاك أناتول ثيبو فرانس » ، الذي ولد في باريس سنة ١٨٤٤ ..

كان من حظه أن ولد لصاحب مكتبة ، تخصص في بيع الكتب والمخطوطات النادرة ، فأحب القراءة وأقبل عليها .. وفي مدرسة « ستانيسلا » الجيزويتية ، بدأ ميله للأدب الكلاسيكي القديم ، لا سيما مؤلفات « هوميروس » . ثم توفر على دراسة تاريخ العصور الوسطى وآدابها ، فنشأت لديه نزعة الاهتمام بالتاريخ .

وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره ، أهدي أبويه أول أعماله الأدبية : « أسطورة القديسة رادجوند » ، ونشر أشعارا ومقالات ، وكتب لموسوعة « لاروس » الكبرى مقالات عن التحف الفنية القديمة . وكان أول كتاب ظهر له هو : « دراسة عن الفريد دي فيني » ، في سنة ١٨٦٨ . ثم نشر بعض دواوينه الشعرية . ومالبت أن عين - في سنة ١٨٧٦ - مساعدا لأمين مكتبة مجلس الشيوخ الفرنسي ..

وفي سنة ١٨٧٩ ، نشر مجموعتين قصصيتين : « جوكاست » و « القطة العجفاء » ، تجلّى فيهما مدى تأثره بالكاتب الفرنسي « الفونس دوديه » ، والكاتب الانجليزي « تشارلس ديكنز » ، الذي ظل تأثيره عالقا به ، حتى لنرى خطوطا منه في « الآلهة عطشى » .

وكانت أول قصة طويلة نشرها هي « جريمة سيافينتر بونار » ، التي نشرت سنة ١٨٨٠ .. وفيها كشف عن طابع خاص ، فكانت مثالا للنثر المنغم ، الذي يحلق بالقارئ في

أجواز الخيال . . واتبعتها في سنة ١٨٨٥ ب ((كتاب صديقي)) .
 والتحق « اناتول فرانس » بصحيفة « الطان » في سنة
 ١٨٨٦ ، فما لبث أن تولى القسم الادبي فيها ، ونهج نهجاً
 مبتكراً في النقد . وفي سنة ١٨٩٠ ، نشر ((تاييس)) فكانت
 لبنة جديدة في صرح شهرته ومجده الادبي . وهي قصة غانية
 من الاسكندرية ، آلى راهب على نفسه أن يهديها الى التوبة
 . . فتأبث وتردى هو في هواها . وتوالت بعد ذلك مؤلفاته . .
 ومن أهمها : ((الزنبقة الحمراء)) - عن الشهوة والفيرة -
 و ((آراء جيروم كوانيار)) و ((بستان ابيقور)) .

وانتخب « اناتول » في سنة ١٨٩٦ ، عضواً في « الاكاديمية
 الفرنسية » . ومالبثت قضية « دريفوس » ان شغلت الرأي
 العام ، فشغل بدوره بكشف فضيحتها ، واستغرق ذلك
 جهوده لبضعة أعوام ، وحفره على وضع ((التاريخ المعاصر)) .
 ولم يشغله الانتاج الادبي عن الخوض في السياسة ، فنشر:
 ((آراء اجتماعية)) في سنة ١٩٠٢ ، و ((الكنيسة والجمهورية))
 في ١٩٠٤ ، و ((نحو أزمان أفضل)) في ١٩٠٧ ، ثم كتب تاريخ
 فرنسا الحديث في قصص خرافية - على نمط فولتير - ضمها
 كتاب ((جزيرة القطا)) .

وفي سنة ١٩١٢ نشر ((الالهة عطشى !)) . وكان قد نشرها
 - من قبل - في حلقات بعنوان ((ايفاريسست جاميلان)) ،
 بطلها . . وهي من أدوع تحفه الادبية .

وقد حصل « اناتول فرانس » على جائزة « نوبل » في
 سنة ١٩٢١ . . وكان عيد ميلاده الثمانون مناسبة احتفت بها
 الاوساط الادبية في العالم بأسره . ولم تنقض عليها ستة
 أشهر ، حتى توفي . . في سنة ١٩٢٤ .

الفصل الاول



• بكر « ايفاريسست جاميلان » الرسام ، تلميذ « دافيد » ،
 وعضو قطاع (بون نيف) - قطاع هنري الرابع سابقا (١) -
 بالذهاب الى كنيسة البارنايبين العتيقة ، التي اتخذت منذ
 ثلاث سنوات - أي منذ ١٢ مايو سنة ١٧٩٠ - مقرا

(١) كانت باريس مقسمة الى قطاعات ، منها (بون نيف) .. الجسر

الجديد

للجمعية العامة للقطاع (٢) .

وكانت الكنيسة تقوم على بقعة ضيقة ، معتمة ، بالقرب من الاسوار الحديدية لقصر العدل . . وقد أسدل الزمن ستارا من الكآبة على الواجهة التي كانت تتألف من طبقتين - على الطراز القديم - ازدانتا بدعامات بارزة ، في أوضاع مقلوبة ، وبمباخر ومواقد من الفخار . . وكانت النقوش الدينية قد كشطت عن الواجهة ، وكتب - فوق الباب - بحروف سوداء ، الشعار الجمهورى : « الحرية ، والمساواة ، والإخاء . . أو الموت » .

ودلف « ايفاريسست جاميلان » الى بهو الكنيسة . . كانت القباب التي شهدت قساوسة مذهب القديس بولس - في مسوح الطقوس الدينية - وهم يرتلون الترانيم ، قد قدر لها أن تشهد الوطنيين ذوى القلنسوات الحمراء ، في اجتماعهم لانتخاب أعضاء مجلس المدينة ، ولناقشة شؤون القطاع . . وقد انتزعت تماثيل القديسين من محاريبها ، وحلت محلها تماثيل نصفية لبروتوس ، وجان جاك ، ولوبيلتييه (٣) . . وعلى الهبكل العارى ، وضعت وثيقة « حقوق الانسان » !

في هذا البهو ، كانت جلسات الجمعية العامة تعقد علانية ، مرتين في الاسبوع ، من الساعة الخامسة حتى الحادية عشرة . وكان المنبر - وقد زين بعلم الامة ذى الالوان

(٢) أقامت الثورة لجنة ثورية في كل قطاع ، لها جمعية عامة تتألف من نواب منتخبين يمثلون أهل القطاع .

(٣) لوسيوس - جونيوس بروتوس : الذى قلب الحكم القيصرى في (روما) . وجان - جاك روسو : الذى كانت كتاباته من بواعث الثورة الفرنسية . وجان جابريل لوبيلتييه : من كبار كتاب فرنسا في الربع الأخير من القرن الثامن عشر .

الثلاثة - يستخدم منصة للمتناقشين . وفي الجانب المواجه للمنبر ، أقيمت منصة من الاخشاب السمكية ، خصصت للنساء والاطفال الذين كانوا يغدون - في جموع كبيرة - على هذه الاجتماعات .



وفي هذا الصباح . استوى المواطن الشيخ « دويون » - النجار بميدان (تيونفيل) ، واحد أعضاء لجنة المراقبة الاثنى عشر - أمام مكتب ، في أسفل المنبر ، وقد ارتدى قلنسوة حمراء و « الكارمانبول » (٤) . وكانت أمامه - على المكتب - زجاجة واكواب ، ومجبرة ، وكراصة اشتملت على نص الالتماس الذي كان يدعو المؤتمر (٥) الى ان يفصل الاعضاء الاثنين والعشرين الذين لم يكونوا جندرين بعضويته (٦) .

وتناول « ايفاريسست جاميلان » القلم ، وسجل توقيعه ، فقال النجار الذي كان يشغل منصب القاضي : « كنت اعرف تماما انك ستسجل اسمك ايها المواطن جاميلان ، فأنت رجل صادق ، ولكن القطاع غير متحمس ، وينقصه الاخلاص وصدق النية . : لقد اقترحت على لجنة المراقبة ان لا تمنح شهادة « المواطن » الى أى امرىء لم يوقع الالتماس ! » .

(٤) معطف قصير شاع ارتداؤه في عهد الثورة الفرنسية .

(٥) المؤتمر - أو الجمعية الوطنية كما يسميه بعض الكتاب - هيئة ثورية قامت في ٢٠ سبتمبر ١٧٩٢ ، لتحل محل الهيئة التشريعية في فرنسا . وهي التي أعلنت قيام الجمهورية ، وقضت بالاعدام على لويس السادس عشر ، وسحقت العناصر الملكية ، ودحرت الدول الأوروبية التي حاولت غزو فرنسا لاعادة الملكية .

(٦) النواب الجيرونديون الذين عارضوا المذابح ، وأبوا التصويت باعدام الملك ، وكانوا يرون الاصلاح بدستور يقيد سلطان الملك .

فقال جاميلان : « اننى على استعداد لأن أوقع بدمى حكم
الاعداء على الخونة التحالفين . لقد ابتغوا موت «مارا» (٧) ،
فليهلكوا هم ! » . ورد « ديبسون » الشيخ قائلا : « ان
الذى يضيعنا هو روح عدم الاكتراث . ففي قطاع يضم
تسعمائة مواطن لهم حق التصويت ، لا تجد خمسين يحضرون
الاجتماع . لقد كنا في أمس ثمانية وعشرين ! »
وقال جاميلان : « اذن ، فمن الواجب ان نجبر المواطنين
على الحضور » بفرض غرامة ! » . فهتف التجار مقطبا
جبينه : « هه ! هه ! هه ! لو انهم اتوا جميعا ، لكان الوطنيون
أقلية بينهم . . هل لك - ايها المواطن جاميلان - في كأس من
النبيذ في صحة الطبيب الذين بلا سراويل ؟ » (٨) .
وكنت تقرا على حائط الكنيسة - الى جوار آيات
الانجيل - هذه الكلمات يصحبها رسم اسود ليد تشير
اصبعها السبابة الى الردهة المفضية الى الاورقة : « اللجنة
المدنية » ، « اللجنة المراقبة » ، « لجنة البس والمهونة » .
وقبلها يبضع خطوات ، كان المرء يصادف باب المخزن الذى
كان مخصصا - من قبل - للمخلفات المقدسة ، وقد علتته
هاتان الكلمتان : « اللجنة العسكرية » . فدفع « جاميلان »
هذا الباب ، واذا بسكرتير اللجنة منهمك في الكتابة ، على
نضد كبير ازدحم بالكتب والاوراق ، وسبائك الفولاذك
والقذائف (الخرطوش) ، وعينات من تراب البارود .
- سلاما ايها المواطن تروبير . . كيف أنت ؟
- انا ؟ . . فى ابداع حال !

(٧) جان - بول مارا : من زعماء الثورة ، وقد حرض على مذابح سبتمبر
١٧٩٢ ، وفرض عهد الارهاب ، ثم اغتالته « شارلوت كورداي » سنة ١٧٩٣ .
(٨) الذين بلا سراويل ، ترجمة لمصطلح «السنكيلاوت» ، الذى سنستعمله
طيلة الرواية . . وهو لقب أطلق على الثوريين من العامة ، اذ ذاك .

وكان سكرتير اللجنة العسكرية « فورتونيه تروبير »
يبدى هذه الاجابة عينها - بلا تغير - لمن يتساءلون عن
صحته ، لا لينبئهم عن حاله ، وانما ليقتضب كل حديث في
هذا الامر . وكان في الثامنة والعشرين من عمره ، جاف
البشرة ، قليل الشعر ، احمر الوجنتين ، محدودب الظهر
.. وقد كان يمتلك دارا عريقة في القدم لصنع العدسات
البصرية - في (كيه ديز اورفيفر) - نزل عنها في سنة
١٧٩١ لعامل كهل ، كى يفرغ الى مهامه في بلدية باريس .
وقد اورثته عينيه الجميلتين ، اللطيفتين ، الزاخرتين
بالعاطفة ، وشحوبه ، وحياءه .. اورثته كل هذا ام فائنة ،
ماتت في العشرين من عمرها ، وظل بعض المسنين في الحي ،
يحتفظون لها باعذب ذكرى .. كما ورث نفسا عادلة ، مثابرة ،
عن ابيه الذى كان اخصائيا في صناعة عدسات الابصار ،
وكان يوفر للملك حاجته منها ، وقد اودت به علة زوجته
قبل ان يبلغ الثلاثين .

وقال « تروبير » ، دون ان يكف عن الكتابة : « وانت
ايها المواطن .. كيف حالك ؟ »
- بخير .. هل من جديد ؟

- ابدا .. لا شيء . كل شيء هادىء هنا ، كما ترى .
- والموقف ؟

- الموقف باقى على حاله دائما .

كان الموقف داعيا الى الانزعاج . فقد كان ابداع جيش
للجمهورية محاصرا في (مايينس) ، وكانت (فالانسيين)
محاصرة ، وقد اشتولى « الفانديون » (٩) على (فونتناى)

(٩) اشعل اشراف مقاطعة (فانديه) ورجال الكنيسة فيها نار حرب اهلية
لصالح الملكية .

.. وكانت (ليون) ثائرة ، وجبال (السـيـفـين) حافلة
بالقلاقل . والحدود مفتوحة للأسبانيين ، وثلاثا المقاطعات
بين مغزوة ومتمردة ، وباريس تحت مدافع النمساويين ،
بلا مال ولا خبز !

وواصل « فورتونيه تروبير » الكتابة بهدوء ، فقد كانت
القطاعات مكلفة بأمر من مجلس الإدارة - « انكومون » - (١٠)
بحشد اثني عشر ألف رجل للقتال الدائر في (فانديه) ،
فانهمك « تروبير » في اصدار التعليمات الخاصة بتجنيد
وتسليح القوة التي فرض على (بون نيف) - التي كانت
تدعى (هنرى الرابع) سابقا - تقديمها . وكان لابد من
تخصيص كافة البنادق - ذات الرصاص - الى جنسود
الجيش الرسمي ، اما رجال الحرس الوطنى فى القطاع ،
فكان لابد من تسليحهم ببنادق الصيد والحراش .



ووضع فورتونيه تروبير قلمه ، وقال : « اذهب اذن الى
المؤتمر - ايها المواطن ايفاريسست - واطلب موافقات تعليمات
لحفر أرض الاقبية ، وغسل التراب وتحليله ، للحصول
على ملح البارود . فليس يكفى ان تكون لدينا مدافع ، بل
لابد من البارود كذلك ! »

وولج مخزن المخلفات المقدسة السابق ، احذب ضئيل
الجسم ، وقد دس قلما خلف اذنه ، وحمل ورقا فى يده .
ذلك كان المواطن « بوفيزاج » ، من رجال لجنة المراقبة .
وقال : « ايها المواطنان ، لقد تلقينا انباء سيئة . فان
« كوستين » قد أجلى عن لاندو » .

(١٠) هيئة ثورية أقيمت فى باريس فى ١٠ أغسطس ١٧٩٢ ، وكانت أقوى
أداة للنهضة الإرهابية .

فصرخ جاميلان : « ان كوستين خائن ! »
 وقال بوفيزاج : « ستقضى عليه المقصلة ! »
 فقال « تروبير » بصوته المتحشرج قليلا ، يشرح رايه
 بهدوئه المعهود : « ان المؤتمر لم ينشئ لجنة للأمن العام
 عبثا . فلسوف يفحص مسلك كوستين هناك ، وسواء كان
 غير كفء او كان خائنا ، فسيهين في مكانه قائد يعقد العزم
 على انقصر .. هذا ما سوف يكون ! »

وقلب الاوراق ، واجرى خلالها بصر عينيه المكدودتين ،
 ثم قال : « لكى يؤدى جنودنا واجبهم بدون مشقة ولا معوق ،
 يجب ان يعرفوا ان الاهل - الذين خلفوهم في بيوتهم -
 يتمتعون بالامان والطمأنينة . فاذا كنت على رايى هذا ،
 ايها المواطن جاميلان ، فعليك بأن تطالب معى - فى الاجتماع
 القادم - بأن تتعاون « لجنة البر والمعونة » مع « اللجنة
 العسكرية » على مساعدة الاسرات المحتاجة ، التى يكون لها
 اقرباء فى الجيش » .. وابتنسم ، ثم غمغم : « هذا ما سوف
 يكون .. لسوف يكون ! » .

لم يكن هذا السكرتير المتواضع للجنة بأحد القطاعات ،
 والذى كان يشتغل اثنتى عشرة ساعة ، بل اربع عشرة ساعة
 فى اليوم ، امام نضد من الخشب الابيض ، لدفع الخطر عن
 وطنه .. لم يكن يرى شيئا من عدم التناسب بين ضخامة
 الواجب المفروض وضالة الوسائل ، بل كان يشعر بأنه
 مندمج فى جهد مشترك بين جميع المواطنين ، وانه جزء من
 جسد واحد يمثل الأمة ، وان حياته قد اندمجت فى حياة

شعب كبير . كان من أولئك الذين يعدون المسدة بعد كل هزيمة ، لنصر مستحيل يرون في تحمس وصبر أن لابد من تحقيقه . وكان لابد لهم من النصر . . فان هؤلاء الرجال المغمورين الذين قوضوا الملكية ، وقلبوا نظام العالم القديم ، من امثال « تروبير » هذا - صانع عدسات الابصار - و « ايفاريسست جاميلان » هذا ، الرسام النكرة . . هؤلاء الرجال المغمورون ، لم يكونوا يتوقعون من اعدائهم رحمة ما! . . ولم يكن امامهم سوى ان يختاروا بين النصر والموت فحسب . . ومن هنا كان حماسهم وتحفزهم !

الفصل الثانى



• ما ان غادر «ايفاريست جاميلان» كنيسة البارناييين، حتى سار نحو ميدان ولى العهد ، الذى بات يدعى (ميدان نيونفيل) ، تكريما لمدينة منيعة صامدة . . وكان هذا الميدان يقع فى أشد احياء باريس ازدحاما ، ومن ثم فانه فقد - منذ قرابة قرن - حسن نظامه وتناسقه . فاذا القصور التى اقيمت على جوانبه الثلاثة - فى عهد هنرى الرابع - وشيدت على نسيق واحد ، بالاجر الذى تتخلله سلاسل من الطوب الابيض ، لتكون مقارا لكبار رجال الدولة من ذوى الابهة . . اذا هذه القصور تستبدل اسقفها الاردوازية الشمامسة ، يطابقين او ثلاثة من المساكن البائسة المبنية بالجص (الجبس)

.. واذا ببعضها يهدم عن آخره ، لتحل محله - في غير ما احتفال - بيوت طليت بالجيز طلاء زريا ، ولم تؤت سوى واجهات بائسة ، قدرة ، غير متناسقة ، تتخللها نوافذ لا حصر لها ، غير متساوية وضيقة ، تحمل أصص الزهور ، واقفاص العصافير ، وغسلا نشر ليحف . وهنا كان يقطن حشد من الصناع ، وصاغة الحلى والمجوهرات ، والنقاشين ، وصناع الساعات وعدسات الإبصار ، والمشتغلين بالطباعة ، وباعة الأقمشة ، والحاتكات ، والفصالات ، وبعض المسنين من رجال القانون الذين لم يصيبوا مفعما في فوضى المدالة الملكية .

وكان الفصل ريبا ، واشعة الشمس الفتية تنسكب في رفق كنبذ خفيف ، فتعكس على الجدران ، وتنساب مرحة الى المخادع المتواضعة . وكانت مصانع النوافذ - المصنوعة من أخشاب متعارضة ، بشكل المقصلة - قد رفعت جميعا ، وبدت تحتها رؤوس ربات البيوت بشعور مشوشة .

وغادر كاتب محكمة الثورة بيته ، ليسعى الى عمله ، مربتا - في سيره - وجنات الاطفال الذين كانوا يلعبون تحت الاشجار .. ومن ناحية (يون نيف) كان الصباح يسرهم معلنا خيانة « ديمورييه » الخسيس ! (١١)

وكان « ايفاريسست جاميلان » يقيم في ناحية (كيه دولورلوج) ، في بيت يرجع الى عهد هنرى الرابع ، وقد ظل محتفظا بقسط كبير من مظهره ، فيما عدا طابق صفيير أقيم من القرميد - تحت السقف الاعلى - في عهد الطاغية

(١١) الجنرال شادل - فرانسوا ديمورييه : كان قائدا مظفرا ، كسب عدة مواقع ، ثم أمفاه « المؤتمر » من القيادة ، فنقم على الشبورة ، وانضم الى أويالها ، وباع نفسه للإنجليز .

السابق على الاخير . وقد اقيمت كثير من الجسدران والحواجز ، لتهيئة المسكن الذى كان لبرلمانى سابق يوما ، ليناسب اسرات التجار والصناع متوسطى الحال . ومن ثم قدر للمواطن « ريماكل » - البواب والحائك - ان يفيسم فى مسكن حشر بين طابقين من طوابق المنزل . . مسكن اقتضب ارتفاعه بقدر ما اقتضب عرضه . وكان « ريماكل » يشاهد فيه - خلال الباب الزجاجى - وقد جلس عاقدا ساقيه على منضدة العمل ، وقفاه الى السقف ، وهو يقص حلة للحرس الوطنى . . فى حين تكون المواطنة ريماكل - التى لا مدخنة لوقدها سوى بئر السلم - ماضية فى تسميم السكان بدخان طبيخها ومقلواتها . . والصفيرة « جوزفين » - ابنتهما الجميلة ، التى كانت فى اشراق النهار ، والتى كانت دائما ملطخة بالعسل الاسود - منهكة فى اللعب مع « موتون » ، كلب النجار . .

ولقد اونيت المواطنة « ريماكل » بسطة فى القلب ، وفى البطن ، وفى الكليتين ، وعرف عنها انها كانت تفقد افضالها على جارها المواطن الشيخ « دوبون » ، أحد الاعضاء الاثنى عشر للجنة المراقبة . على ان زوجها كان محتدم الشكوك ، ومن ثم كان الزوجان « ريماكل » يملآن البيت بضجيج يتناوبانه فى مشاجراتهما وصلحهما . أما الطوابق العليا من المنزل ، فكان يشغلها المواطن شابيرون الصائغ - الذى كان حانوته فى (كيه دولورلوج) - وموظف فى الصحة ، واحد رجال القانون ، وصانع للحلى الذهبية ، وكثير من موظفى دار العدالة .



وصعد « ايفاريست جاميلان » السلم العتيق الى الطابق

الرابع والاخير ، حيث كان مرسمه وغرفة أمه . وهناك ، انتهى الدرج الخشبي المطعم بالبسلاط ، الذى كان يتلو الدرجات الحجرية العريضة المقامة فى الطابقين الاولين . وكان ثمة سلم متنقل ، أسند الى الجدار ، ليقود الى طابق ضيق منخفض تحت سقف الدار . ومن هذا الطابق ، هبط - اذذاك - رجل بدين طاعن السن ، ذو وجه جميل متورد مزدهر ، كان يضم بين ذراعيه بعناء ، حزمة هائلة ، وهو يهمهم - برغم ذلك - متفنيا : « لقد أضعت خادمى ! »

وتوقف عن الفناء : ليلقى - فى ادب - بتحية الصباح الى « جاميلان » الذى حياه فى اخوة ، وساعده على انزال حزمته . فأبدى الكهل له امتنانه ، ثم قال وهو يعود فيرفع حمليه : « هنا الدمى التى صنعتها ، وسأحملها الى تاجر للعب بشمسار (ديلالوا) .. أنها شعب كامل .. أنها مخلوقاتى ، وقد حظيت منى بأجساد قابلة للفناء معفاة من الشهور بالفرح والالهم . فانا لم أمتحها فسكرا ، لأننى اله طيب ! »

ذلك كان المواطن « موريس بروتو » ، محصل الضرائب القديم ، والنبييل السابق .. وقد اغتنى أبوه من الاحزاب ، واشترى لقبا بثمان بخس . فكان موريس بروتو يدعى - فى أيام الرخاء - السيد « ديزيليت » ، وقد اعتاد أن يقيم فى داره ، بشارع (ديلا شيز) ، مآذب عشاء فخمة ، تنيرها عينا « مدام دى روشسمور » الحسناء .. زوجة أحد الوكلاء القضائيين . وكانت امرأة بكل ما فى الكلمة من معان ، لم تفقد من خلة الوفاء الكريم قدر ما فقد « موريس بروتو ديزيليت » - بسبب الثورة - من مناصبه ، ودخله ، وقصره ، وأراضيه ، واسمه .. فلقد أعفته الثورة من كل

هذه ، وصار يكسب عيشه برسم اللوحات تحت الابواب ذات
الاقبية ، وبصنع الفطائر والمعجن المقلو (نوع من الحلوى)
على رصيف (الميجينيرى) ، وينظم الخطب لمثلئ الشعب ،
وبتلقين المواطنين الشسايات دروس الرقص . اما الآن ،
فقد باتت ثروة موريس بروتو - فى حجره الذى كان المرء
يتسلل اليه على سلم متنقل ، ولا يملك ان يقف فيه منتصب
القامة - قدرا من الفراء ، وحزمة من الخيط ، وصندوقا
للألوان المائية ، وبضع قراضات لقص الورق . . وكان يصنع
دميا يبيعها لتجار الجملة المشتغلين بتجارة اللعب ، فيبيعونها
بدورهم الى الباعة المتجولين ، الذين يطوفون (الشانزليزيه)
بها ، وقد علقوا الى اطراف أعواد من الخشب ، تلك الأشياء
البراقة التى يهفو اليها صفار الاطفال . وكان فى غمسة
الاضطرابات العامة والمحنة الكبرى - التى كان هو بالذات
يتردى فيها - يحتفظ بروح صافية . فقد كانت سلوكته
الوحيدة هى قراءة ديوان « لوكريس » (١٢) الذى كان
يحملة أبدا فى جيب سترته « الردينجوت » البالية !



ودفع « ايفاريسيت جاميلان » باب مسكنه ، فانصاع له
الباب على الفور . اذ ان فقره اعفاه من ان يشغل باله
بالاقفال . فاذا ما دفعت امه الرتاج - بحكم العادة - قال
لها : « وما جدوى ذلك ؟ . ان احدا لا يسرق نسيج
المنكبوت ! . كما ان لوحاتى ليست ذات نفع ! »
وفى مرسمه ، كانت اللوحات تتراكم تحت طبقة سميكة

(١٢) لوكريس : شاعر لاتينى ، ولد فى (روما) سنة ٩٥ قبل الميلاد . وقد
نظم ديوانا فى « طبيعة الأشياء » ، وكان من رسل المادية الابيقورية .

من الفبار ، او تستلقى مرتكنة الى الجدران ووجوها اليها .. لوحات رسمت في بداية عهده بالفن ، وفقا لما كان شائعا اذذاك ، وقوامها مناظر للشجاعة رسمت فيها - بريشة ناعمة مترددة - جعب السهام الخساوية ، وطيور محلقة ، ومغامرات خطيرة ، ورؤى خيالية للسعادة .. وازدحمت بحارسات الازر ، وقد ازدانت صدور الراعيات بالورود .. ولكن هذا النمط لم يكن يناسب مزاجه ، ومن ثم فان التزمت الذى عولجت به هذه المناظر ، تم عن طهر وبراءة لاخلص له منهما . وما كان هواة الفن ليفقلوا ذلك ، فان « جاميلان » لم يعتبر يوما ممن يجيدون رسم المناظر المثيرة للفرائز . ومع انه لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره ، فان هذه الموضوعات كانت تبدو له وكأنها ترجع الى عهد لا تكاد تعيه الذاكرة . وكان يلمس فيها حطة العهد الملكى ، والاثر المخزى الذى أحدثه فساد البلاط الملكى ، فكان يلوم نفسه اذ اتجه الى هذا النوع الحقير ، فساهم بنصيب مهين فى فن العبودية !

أما وقد أصبح مواطنا فى شعب حر ، فقد اخذ يرسم بالفحم لوحات قوية تمثل الحريات ، وحقوق الانسان ، والنظم الدستورية الفرنسية ، وفضائل الجمهورية ، والهرطقة - من ابطال الشعب - وهم يقضون على افعى الاستبداد والظلم .. وكان يودع هذه الاعمال جميعا ، كل ما اوتى من وطنية متاجعة ، ولكنه - واسفاه ! - لم يكن يكسب منها عيشه ، فقد كان الوقت سيئا بالنسبة لأهل الفن . وما من شك فى ان ذلك لم يكن ذنب المؤتمر الذى راح يقذف بالجيوش - من كل صوب - فى وجه الملوك .. والذى مزق نفسه بيديه ، وقسا على نفسه وغدر بها ، فى

تصميمه الأبى العنيد على الصمود في وجه أوزيا المتآمرة المتعصبة .. والذي جعل الإرهاب دستور حكمه ، فأقام لمعاقة المتآمرين محكمة لا ترحم ، حتى اعضاءها انفسهم ، فلم تلبث ان تهشتهم .. والذي كان - في الوقت ذاته - هادئا ، مطمئنا ، محبا للعلم والجمال ، فمسددا التقويم الزمني ، وانشأ مدارس خاصة ، وأقام مباريات في الرسم والنحت ، واعتمد الجوائز لتشجيع اهل الفن ، ونظم المعارض السنوية ، وفتح المتحف ، وطبع الاحتفال بالاعیاد وبالذكریات القومية بطابع من السمو ، على غرار ما كان يجري في اثينا وروما قديما .

بيد ان الفن الفرنسي الذي كان ينتشر - فيما مضى - في انجلترا والمانيا وروسيا وبولندا ، لم يعد ذا اغراء في الخارج . كما ان هواة الرسم ، وعشاق الفن ، وكبار السادة والماليين كانوا قد افسسوا ، أو هاجروا ، أو اختبأوا . أما الذين اكسبتهم الثروة ثراء ، من فلاحين ، ومتجرين في الشؤون المدنية ، ومتجرين في الاوراق المالية ، وموردين لؤن الجيوش ، وقيمين على اموال المقامرين في (البالييه - رويال) .. أما هؤلاء فلم يعودوا يجسرون على اظهار بدخهم ، ومن ثم فانهم لم يعودوا يحفلون بالرسم .. وكان لابد من سمعة « رينو » ، أو اسم « جيرار » الشاب لبيع أية لوحة . أما « جريز » و « فراجونار » و « هوان » فقد هوا الى درك الفاقة ، واصبح « برودون » يغذى زوجته وامراته بالنزر اليسير ، عن طريق رسم موضوعات كان « كويا » يحفرها بطريقة النقش والتطعيم . كما ان الرسامين الوطنيين « انيكان » و « فيكار » و « توينو » - لوپرون « أصبحوا يعانون الجوع .

أما « جاميلان » فقد أصبح عاجزا عن تدبير نفقات لوحة واحدة ، ولم يعد قادرا على أن يدفع للنموذج (الموديل) أجرها ، ولا على شراء الألوان ، فتسرك لوحته الكبيرة « الثائرون يطاردون الطاغية الى الجحيم » ، ولما يتم رسمها . . وكانت تشغل نصف الرسم ، وقد ضمت صورا ناقصة مربعة ، أكبر حجما من الاشكال الطبيعية ، وبحشد من الثعابين الخضراء وقد ابرز كل منها لسانين حادين ملتويين . . وفي المقدمة - الى اليسار - كانت تبدى معالم « كارون » (١٣) هزيل وحشى ، فى قاربه . . كانت تحفة قوية ، حسنة الرسم ، ولكنها توحى بالقيود المدرسية فى الفن . وكانت ثمة لوحة اقل حجما ، ولم تكتمل كذلك - وقد علفت فى اكثر بقاع الرسم ضوءا - اكثر براعة وقربا من الطابع الطبيعى . تلك كانت صورة « اوريست » واخته « اليكترا » تنهضه فى سرير أوجاعه . وكانت الفتاة ترى وهى ترفع - بحركة حانية - الشعر المهوش الذى كان يحجب عينى أخيها . وكان رأس « اوريست » جميلا وحزينا ، يستطيع المرء ان يتبين فيه شيئا بوجه الرسام نفسه (١٤) .

وكثيرا ما كان « جاميلان » يتأمل هذا المنظر بعين متحسرة ، وذراعا تترجفان شوقا الى الرسم ، وتمتدان الى شكل « اليكترا » - الذى رسم بخطوط عريضة - ثم تهويان فى عجز . . كان الرسام مفعما بالحماس ، وكانت روحه تنزع الى جلائل الاعمال . ولكنه كان مضطرا الى ان

(١٣) فى الاساطير اليونانية ان الارواح تنتقل الى نهر (ستايكس) - الذى يخط بعالم ما تحت الارض - فى قارب تقوده شخصية خيالية هي « كارون » (١٤) « اوريست » مأساة كتبها يوريبديس سنة ٤٠٨ قبل الميلاد ، عن ابن « اجا مهنون » الذى قتل امه - بالاتفاق مع اخته « اليكترا » - انتقاما لابيها

يُكف على الأعمال التي كان يطلب اليه اداؤها ، فينجزها في غير حماس ، لانه كان مضطرا الى ارضاء ذوق العامة ، ولانه كذلك لم يكن يعرف كيف يسبق على التوافق طابع الفن العبقري . فكان يرسم مناظر رمزية صغيرة ، يحفرها زميله « ديماهي » بدقة بالغة ، لتطبع باللون الاسود أو بالالوان ، فيأخذها - بثمن بخس - تاجر للصور المطبوعة على الخشب ، في شارع (أونوريه) ، هو المواطن « بليز » . ولكن تجارة الصور المطبوعة على الخشب كانت تسير من سيء الى أسوأ ، كما كان « بليز » يقول . . فلم يعد أحد - منذ فترة من الزمن - راغبا في الشراء !

على ان « جاميلان » اهتدى في هذه المرة - وقد جعلته الحاجة اريبا - الى اختراع موفق ومبتكر - كما بدا له هو ، على الأقل - كفيل بأن يوفر الثروة لتاجر الصور الخشبية، وللحفار . وله هو . . تلك الفكرة تمثلت في ورق اللعب ذي طابع وطني ، فبدلا من الشائب (الروا) ، والبنت (الدام) ، واثولد (الفاليسه) التي كانت في ورق اللعب - في العهد القديم - ابتكر جاميلان « العبقري » ، و « الحصرية » و « المساواة » . واذ فرغ من تصميم كل هذه الاشكال ، واتم منها عددا ، تملكته اللفة الى ان يحمل الى « ديماهي » ما وجدته منها صالحا للحفر . وكان الشكل الذي بدا له انه أفضلها ، يمثل متطوعا عسكريا يرتدى القلنسوة الثلاثية الاركان ، وسسترة زرقاء ذات حواف حمراء ، وسروالا (بنطلون) اصفر ، وطماقين أسودين (١٥) ، وقد جلس على صندوق وقدماه على كومة من الرصاص ، وبندقيته بين ركبتيه . ذلك هو « المواطن القلب » الذي ابتكره ليحل محل

(١٥) « طرلك » . . وقاء من الجلد يلبس فوق الحذاء .

« الفاليه القلب » . ولقد ظل جاميلان يرسم متطوعين منذ ستة شهور - وكان يرسمهم بششقف دائما .. وباع بعض صورهم في ايام الحماس المتأجج .. وبقي كثير منها على جدران الرسم ، وخمس أو ست مرسومة بالالوان المائية ، و « الجواش » ، ونوعين من الاقلام - ملقاة على المنضدة أو على المقاعد .



وعندما اقيمت المنصات في كافة ميادين باريس - في شهر يولييه سنة ١٧٩٢ - لتسجيل أسماء المتطوعين ، وازدانت الملاهى جميعا بأوراق الشجر ، وهى تضج بصيحات : « عاشت الامة ! .. الحياة الحرة أو الموت ! » ، بات « جاميلان » عاجزا عن أن يعبر الجسر الجديد (بون - نيف) ، أو أن يمر بدار البلدية ، دون أن يقفز قلبه نحو الخيمة المزدانة بالبيارق ، حيث كان النواب ذوو الاوشحة يثبتون أسماء المتطوعين على انغام « المارسليز » .. ولكنه كان يخشى أن يترك امه بلا عائل ولا نصير ، اذا هو التحق بالجيش .

ودخلت المواطنة الارملة « جاميلان » الى المرسنم ، تسبقها ضوضاء من صفير انفاسها المتعسرة ، وقد نضحها العرق ، واحمر وجهها ، وتتابعث لهثاتها ، وتدلث الشارة القومية من قلنسوتها باهمال ، توشك أن تفلت من مكانها . ووضعت سلتها على مقعد ، وراحت تشكو من غلاء المعيشة ، وهى تستوى معتدلة فى وقفها لتتمكن من التنفس بمزيد من اليسر .. كانت تشتغل ببيع السكاكين فى شوارع (جرينيل - سان - جيرمين) ، عند اللافتنة التى تحمل

عبارة « مدينة شاتيلرو » ، عندما كان زوجها على قيد الحياة . . أما الآن - وقد غدت ربة بيت فقيرة - فانهما أقامت معتكفة لدى ابنها الرسام . وكان أكبر الابنين اللذين رزقتهما . اما الأصغر فكان فتاة ، هي ابنتها « جولى » التي كانت - من قبل - عارضة للآزياء في شارع (اونوريه) ، وكان من الأفضل تجاهل ما صارت اليه ، اذ لم يكن من الخير القول بانها هاجرت مع أحد « الأرستقراطيين » !

وقالت المواطنة جاميلان - متنهدة - وهي تعرض على ابنها رغيفا من عجينة سميك لسمي : « رحماك يارب . . ان سعر الخبز قد تجرر دل حسد . . فما بالك لو انه كان من الحنطة النقية . ولا وجود - في السوق - لببض أو جبن . اننا لفرط أكل الكستناء سنغدو كستناء ! » (١٦) . . وعادت تقول بعد صمت طويل : « لقد رايت في الطريق نسوة لا يملكن شيئا يطعمنه أطفالهن . ان البؤس شديد الوطأة على أهل الفقر ، ولسوف يظلون كذلك طالما ان الامور لم تستقر على ما كانت عليه ! »

فقال « جاميلان » ، وهو مقطب الجبين : « ان الضيق الذي نعانيه يا أماه راجع الى المحتكرين والمضاربين ، الذين يجيعون الشعب ، ويتآمرون مع الاعداء الذين في الخارج على اظهار الجمهورية بقبضة في أعين المواطنين ، وعلى تقويض الحريات . هذا ما تهدف اليه مؤامرات البريسوتيين (١٧) ،

(١٦) كان الكستناء (ابو فروة) أرخص من الخبز لتوفر اشجاره .

(١٧) البريسوتيون : اسم كان يطلق على حزب « الجيرونديين » ، نسبة الى « جاك - بيير بريسو » الذي كان من أبرز أعضائه ، وكان وانصاره يؤلفون فريق اليمينيين في الجمعية العامة ، ويعارضهم « الجبليون » . وكان اليمينيون ضد مذابح سبتمبر ١٧٩٢ ، وضد اعدام الملك ، فطردوا من المؤتمر ، واعداد زعمائهم ومنهم بريسو .

وخianat انصار بيتيون (١٨) ورولان (١٩) . ولكم تكون
 سسعداء الحظ اذا لم يأت الحلفاء مسلحين الى باريس
 ليذبحوا الوطنيين الذين لم تعجل المجاعة بعد بهلاكهم !..
 ليس ثمة وقت يبدد ، بل لا بد من تحديد سحر الدقيق ،
 واعداد اى مستغل لقوت الشعب ، وأى مفسير للفتن او
 متحالف مع الاجنبى . ان المؤتمر ينشئ محكمة استثنائية
 لحاكمه المتآمرين ، وهى تتألف من وطنيين ، ولكن .. هل
 يكون لدى اعضائها طاقة كافية للنود عن الوطن ضد كل
 أعدائه ؟ .. ليكن لنا فى « روبسبير » أمل ، فهو رجل
 مخلص .. وليكن لنا فى « مارا » - بوجه خاص - أمل ،
 فان هذا الاخير يحب الشعب ، ويتحرى مصالحه الحقيقية
 فيعمل من اجلها . ولقد كان الاول دائما فى كشف الخونة ،
 وفى احباط المؤامرات .. انه نزيه وغير هيباب . وهو وحده
 القادر على انقاذ الجمهورية من الخطر ! »

وهزت المواطنة جاميلان راسها ، فأسقطت الشارة المهمة
 عن قلنسوتها ، وهى تقول : « حسبك يا ايفاريسست ! .. ان
 بطلك « مارا » انسان كفيه ، ولا يفضل سواه فى شىء .
 انك شاب ، وانك لتساق للاوهام .. وكل الذى تقوله
 اليوم فى « مارا » ، قد قلته - من قبل - فى ميرابو ، وفى
 لافاييت ، وفى بيتيون ، وفى بريسو » . فصاح جاميلان وقد
 نسى ذلك حقا : « ابدا ! »

وأخلت المواطنة طرفا من المنضدة الخشبية البيضاء -

(١٨) بيتيون دى فيلنيف : عمدة باريس سنة ١٧١٩ ، ورئيس المؤتمر .

(١٩) رولان ديلا بلاتير : وزير الداخلية سنة ١٧٩٢ . وكانت زوجته

نصيرة للادب والفن ، ولها « صالون » للجيرونديين فيه القدر المعلى ، مما

أدى بها - هى الأخرى - الى المقصلة . وهى صاحبة العبارة الماثورة

(« ايتها الحرية ، كم من الجرائم ترتكب باسمك ») .



.. فقال جاميلان : ((حسبك يا أماء ، الصمتي ! ..)) (ص ٣٢)

المتخمة بالاوراق والكتب وفراجين الرسم والاقلام -
فوضعت وعاء خزفيا مليئا بالحساء ، وطبقين من القصدير ،
وشوكتين من الحديد ، والرغيف الاسمر ، وابريقا به نبذ
خفيف . وتناول الابن والام الحساء في صمت % وختما
عشاءهما بقطعة صغيرة من شحم الخنزير ، وقد وضعت
الام نصيبها على خبزها ، وقطعته الى لقم صغيرة راحت
تنقلها بحذر - على سن مطواتها - الى قمها الخسالى من
الاستنان . ثم اخذت تمضغ هذا الغذاء - الذى تكلف ثمنا
غاليا - فى استمرار وعناية .

وتركت الشطر الافضل فى الطبق لابنها الذى ظل يفكر
مستغرقا ، فراحت تردد له فى فترات متساوية : ((كل
يا ايفاريسست . . كل !)) . وكانت هذه العبارة تتخذ على
شفتيها وقار التعاليم الدينية . . وما لبثت الام ان استأنفت
شكاواها من غلاء المعيشة ، فعاد جاميلان يدعو من جديد
الى التسعير كعلاج اوحده لهذه العلل . ولكنها قالت :

- لم تعد هناك نقود ، فلقد نقلها المهاجرون عن آخرها
. . ولم تعد هناك طمأنينة ، فكل شئ يدعو الى اليأس !

فصاح جاميلان : « حسبك يا اماه ، اصمتى ! . . ما ضر
ان نعانى الحرمان والآلام لفترة عابرة ، اذا كانت الثورة
ستعمل لخير الجنس البشرى على مر القرون ؟! »

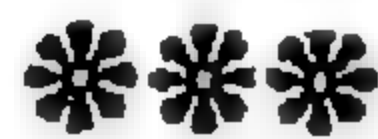
وغمست العجوز خبزها فى نبيذها ، وقد اشرقت
اساريرها وهى تفكر مبتسمة فى أيام شبابها ، حين كانت
تلعب على العشب فى عيد الملك . وعاودتها كذلك ذكرى اليوم
الذى سألها فيه « جوزيف جاميلان » - بائع السكاكين - فى
بلدها - ان تتزوجه . واخذت تروى - بالتفصيل - كيف
بيارت الامور . . فلقد قالت لها امها : « ارتدى ثيابك ،

فُنحن ذاهبتان الى حانوت السيد بياناسى الصائغ - فى ميدان (جريف) - لنشهد اعدام « داميان » بتمزيقه اربا ! » . ولقيتا عناء فى شق طريق لهما خلال الجموع المشبوبة الفضول . ووجدت الفتاة « جوزيف جاميلان » فى حانوت السيد بياناسى ، وقد ارتدى حلتها الوردية الجميلة ، فأدركت لفورها سر مجيئه . . وطيلة الوقت الذى قضته لدى النافذة ، لتشهد قاتل الملك وهو يكوى بالكلاشات المحمية ، ثم يصب عليه الرصاص المصهور ، ويشهد الى خيول اربعة فتمزقه ، ثم يلقي به الى النار . . طيلة هذا الوقت كان السيد « جوزيف جاميلان » يقف وراء الفتاة ، ولا يكف عن اطراء لون بشرتها ، وشكل شعرها ، وقوامها ! وافرغت ثمالة كوبها ، واستطردت مسببة ذكرى حياتها :

- ولقد جلبتك الى الدنيا يا « ايفاريسنت » بأسرع مما كنت انتظر ، من جراء رعب انتابنى ، اذ كنت حبلى ، وكادت الجموع - التى كانت تهرع لتشهد اعدام السيد « دولالى » (٢٠) - ان توقعنى على الجسر الجديد . ولقد كنت من صغر الحجم - عند مولدك - الى درجة ان الطبيب كان يخشى ان لا تعيش ، ولكنى كنت اوقن من ان الله سينعم على فيصونك . وربيتك على خير ما كان يوسمى ، دون ان أضن بعناية ولا بنفقة . ومن الانصاف يا ايفاريسنت ان أقول انك قد اظهرت لى عرفانا بالجميل ، وانك سمعت - منذ طفولتك - الى مجازاتى بقدر وسائلك . ولقد كنت

(٢٠) توماس - ارثر دولالى ، بارون تولونداى ، الذى كان حاكما للبقاع الفرنسية فى الهند ، فهزمه الانجليز ، واتهم بخيانة فرنسا فاعدم سنة ١٧٦٦ .

بفطرتك محبا ولطيفا . وما كانت اختك بالجاحدة القلب ،
ولكنها كانت أنانية وعنيفة . على أنك أوتيت من الرحمة
بالبائسين فوق ما أوتيت هي . . وعندما كان الصنفار من
صعاليك الحي يغيرون على اعشاش الطيور فوق الاشجار ،
كنت تنتزع الفروخ من ايديهم لتردها الى امهاتها . وكثيرا
ما كنت لا تنثنى الا بعد أن يركلوك ويضربوك بقسوة . .
وفي السابعة من عمرك ، كنت تمضي في الشارع - في هدوء -
وانت تردد درسك الديني ، بدلا من التشاجر مع اقران
السوء ، وكنت تأتي بكل من تلتقى بهم من الفقراء الى المنزل
لمساعدتهم ، حتى اضطرت الى ان اسوطك لتقلع عن هذه
العادة . وكنت لا تقوى على ان ترى مخلوقا يتألم دون ان
تذرف الدموع . وعندما استكملت نموك ، غدت بارع
الحسن . وشد ما كانت دهشتي اذ لم يبد أنك كنت تظن
الى ذلك ، فكنت - في ذلك - جد مختلف عن سواد الفتية
ذوى الجمال ، الذين يختالون ويزدهون بأشكالهم !



ولقد قالت الام العجوز صدقا ، اذ كان لايفاريس - في
سن العشرين - وجه وقور فاتن ، ذو جسم عال يجمع بين
الصرامة والانوثة في آن واحد . . وجه له قسمات وجهه
« مينرفا » (٢١) . اما الآن ، فان عينيه المكتئبتين وخديه
الشاحبين اصبحت تعبر عن روح حزينة عنيفة . بيد ان
نظرته استردت - للحظة - رقة باكورة الشباب ، عندما
التفت الى امه . فاستأنفت حديثها قائلة :

- كان بوسعك ان تستغل محاسنك للايقاع بالفتيات ،

ولكنك كنت تستطيب البقاء بالقرب منى فى الحانوت . فكنت
أعمل أحيانا على ان أقصيك عن التعلق بذىلى ، وعلى ان
تنطلق لتمرح قليلا مع اقرانك . وانى لأشهد لك يا إيفارىست
— الى ان أسجى على فراش الموت — بأنك كنت ابنا بارا .
فبعد وفاة أبىك ، آليت على نفسك — بشهامة — ان تكفلنى ،
وبالرغم من ان مهنتك لا تدر عليك دخلا ، فانك لم تدعنى
افتقد شيئا . . واذا كنا اليوم معا فى عوز وفاقه ، فلست
أملك ان ألومك ، اذ ان الذنب فى ذلك ذنب الثورة !

وندت عنه حركة احتجاج ، ولكنها هزرت كتفها
واستطردت :

— اننى لست ارسقراطية . فقد عرفت العظماء فى أوج
سلطانهم ، وبوسعى ان أقول انهم كانوا يسيئون استغلال
امتيازاتهم . . لقد شهدت أباك يضرب بعضى أتباع ذوق
(« كاناليل ») ، لانه لم يسرع بالتشجى عن طريق هؤلاءهم .
وما أحببت النمسوية (٢٢) قط ، فلقد كانت مسسفة فى
الفطرسة ، وكانت مبتدرة كل التبذير . أما الملك ، فكنت
أعتقد انه طيب ، ولولا محاكمته وأدائته والحكم بأعدائه
لما غيرت رأى فىه . وقصارى القول اننى لا آسف على العهد
القديم ، وان كنت قد قضيت فيه لحظات هائلة . ولكن
لا تقل لى ان الثورة ستقر المساواة ، لأن البشر لن يكونوا
متساوين قط . . ان هذا غير ممكن ، واقصى ما يستطيع هو
قلب المعانى رأسا على عقب ، وسيبقى هناك دائما كبار
وصغار ، وسمان وعجاف !

وكانت — وهى منهمكة فى الكلام — قد جمعت الآنية . .

(٢٢) ماري انتوانيت ، زوجة لويس السادس عشر . فقد كانت أميرة
نمىوية .

ولم يعد الرسام يصفى إليها ، إذ راح يفكر في رسم لواحد من « السانكيلوت » ، بقلنسوة حمراء و « كارمانيسول » ، ليحل - في أوراق اللعب التي ابتكرها - محل « الفاليسه البستونى » البائد !

وانبعثت طرقات على الباب ، ثم ظهرت فتاة ريفية ، عرضها يفوق طولها ، شقراء ، معوجة الساقين ، تحجب عينها اليسرى وراء عدسة ، بينما كانت عينها اليمنى ذات زرقاء جد باهتة ، حتى لتكاد تبدو بيضاء . . وكانت شفتاها كبيرتين ، وأسنانها تبرز فوق الشفتين .

وسألت « جاميلان » عما إذا كان هو الرسام ، وعما إذا كان بوسعه أن يرسم خطيبها فيران (جول) ، المتطوع في جيش (الأردين) . فأجاب جاميلان بأنه على استعداد لأن يرسم الصورة - عن طيب خاطر - عند عودة المحارب الباسل . وسأله الفتاة - في الحاح رقيق - أن ينجز ما طلبته فوراً ، فابتسم الرسام - على الرغم منه - واعتذر بأنه لا يملك أن يصنع شيئاً بدون النموذج الاصلى . ولم تجبه المسكينة ، فما كانت قد توقعت هذه العقبة . وظلت جامدة ، صامتة - وقد مال رأسها على كتفها اليسرى ، واشتبكت يداها على بطنها ، وبدت رازحة تحت وطأة الاسى . وتأثر الرسام ، كما يستطرف مثل هذه السذاجة ، فشاء أن يسرى عن العاشقة البائسة ، ودفع الى يدها بأحدى صور المتطوعين التي رسمها بالألوان المائية ، وسألها عما إذا كان خطيبها بهذا الشكل .

والقت الفتاة على الورقة نظرة حزيننة من عينها ، لم تلبث ان انتعشت رويدا ، ثم اشرقت ، ثم تألقت .. وانبسط وجهها الكبير في ابتسامة وضاءة . وقالت اخيرا :
 « هذا شبهه حقا .. هذا هو فيران (جول) بشكله الطبيعي
 ١. هذا هو فيران (جول) بكل سماته ! »

وقبل ان يفكر الرسام في انتزاع الورقة من يديها ، كانت الفتاة قد طوتها - بعناية - بين اصابعها الحمراء الغليظة ، وجعلت منها مربعا جد صغير دسسته فوق قلبها ، بين المشد والقميص . والقت الى الرسام ورقة مالية من فئة الخمسة ليبرات ، وتمنت له مساء طيبا وهي تخرج جذلة خفيفة الحركة !

الفصل الثالث



♦ ذهب « ايفاريسست » ، في عصر ذلك اليوم ، لزيارة المواطن « جان بليز » ، تاجر الصور ، الذي كان يبيع التحف ، وادوات الزينة المصنوعة من الورق المقوى ، وكافة الطرائف كذلك .. بشارع (اونوريه) ، في مواجهة معهد الخطابة والبيان ، بالقرب من رصفة (الميساجيرى) ، في حانوت اطلق عليه « لامور بانتر » ، اى « رسام الفرام » ! .. وكان المتجر فى الطابق الارضى للدار عتيقة - عمرها ستون عاما - يفضى اليه مدخل يعلوه رأس مقوس ، حمل فى اعلاه صورة رأس ضخيم ذى قرنين . وقد ملأ قنطرة القوس رسم زيتى يمثل « الصقلى .. او رسام الفرام » - نقلا عن لوحة لبوشيه - وكان والد « جان بليز » قد ثبت هذا الرسم

في مكانه ، في سنة ١٧٧٠ ، وتعاونت الشمس والمطر - منذ ذلك الحين - على محوه !

وعلى كل من جانبي الباب، كان ثمة فراغ مقبى آخر، يعلو قنطرته رأس حورية من حوريات الماء ، وقد سد بأكبر صفحة من الزجاج تسنى العثور عليها ، وخصص لعرض الصور المحفورة على الخشب - التي كانت شائعة ! ذاك - واحدث مبتكرات النقش بالالوان . وقد لاح في النافذتين - في ذلك اليوم - رسمان ابتعثتهما ريشة « بوالى » في حلق بخالطه شيء من الجفاف ، واطلق عليهما : « دروس في الغرام الزوجى » و « صد رقيق » . وقد فضح فيهما اليعاقبة ، فاستنكرهما نورو العقول الطاهرة في الوسط الفنى . . ولوحة « المتنزه العام » لديبوكور ، وفيها شاب من علية القوم ، ارتدى سروالا فاقع الصفرة ، وقد استلقى على ثلاثة مقاعد . . وصور لبعض الخيل من رسم « كارل فرييه » الشاب ، وصور مناطيد هوائية ، ولوحة « حمام فيرجينى » ، وبعض مناظر أخرى منقولة عن التحف القديمة !

ومن بين المواطنين الذين كانوا يمرون زرافات امام المتجر، كان اكثرهم رثاة هم أطولهم مكثا امام النافذتين البديعتين . فقد كانوا سريعى الانجذاب الى الصور لخلو حياتهم منها ، شديدى الشوق الى ان ينالوا - ولو بأعينهم - نصيبا من متاع الدنيا . . وكانوا يفغرون أفواههم اعجابا ، في حين ان الارستقراطيين كانوا يلقون على النافذتين نظرة عابرة ، ويقطبون الجباه ، ثم يمضون !

وما ان لمح « ايفاريسست » المكان عن بعد ، حتى صعد نظراته صوب احدى النوافذ التي كانت مفتوحة فوق المتجر

.. تلك هي النافذة اليسرى ، حيث كان ثمة اميص للقرنفل الاحمر ، خلف سياج الشرفة الحديدى المبيض . وكانت هذه النافذة تغلق النور على حجرة ((ايلودى)) ، ابنة ((جان بليز)) . اذ كان تاجر الصور يقطن مع وحيدته في الطابق الاول من المنزل .

وبعد ان وقف « ايفاريست » لحظة امام « لامور بانتر » كما لو كان يلتقط انفاسه ، ادار مقبض الباب ، فوجه المواطنة ايلودى - التى كانت قد باعت صورتين من لوحات « فزاجونار » الابن و « نايجون » ، اختيرتا بدقة من بين الصور الكثيرة الاخرى - ترفع الاوراق المالية بين عينيها الجميلتين وضوء النهار ، قبل ان تغلق عليها الخزنة لتفحص العلامات المائية - المؤلفة من شبكة من الخطوط الدقيقة - وهى قلقة . اذ كانت الاوراق الزائفة متداورا أكثر من الاوراق الحقيقية ، مما احدث انزعاجا كبيرا اوساط التجارة . وكما كانت الحال - فيما مضى - اذ اولئك الذين كانوا يقلدون توقيع الملك - فان مزيفى النقود القومية كانوا يعاقبون بالموت . ومع ذلك فان لوحات (كليشيئات) طبع الاوراق المالية ، كانت توجد فى كل مكان . وكان السويسريون ينتجون الاوراق المزيفة بالملايين فكانت تلقى فى الفنادق الريفية بالحرم .. وكان الانجليز يفرغون على سواحلنا - يوميا - طرودا منها ، لكى يزعزع الثقة فى الجمهورية ويهروا بأهل الوطن الى الفاقة .. وكانت « ايلودى » تخشى ان تتسلم أوراقا زائفة ، وتخطئ به اكثر من ذلك - ان تدفع أوراقا من هذه الي الغير ، فتج

بالتأمر مع « بيت » (٢٣) .. ولو انها كانت تثق في حظها ،
مطمئنة الى نجاتها من كل ما يصادفها في هذا الصدد !



وتأملها « ايفاريسست » بتلك النظرة الساجية التي هي
ابلع من الابتسام في الافصاح عن الحب .. وتأملته هي بنظرة
شدرة ، يخالطها شيء من السخرية ، انبثقت من عينيها
السوداوين .. وقد انبثت هذا التعبير لديها من ادراكها
انها كانت محبوبة ، وانه ما كان يفضيها ان تكون محبوبة
.. ومن ان هذه النظرة تشير العاشق ، وتحمله على أن يشكو
الظلم ، أو تستدرجه الى ان يبوح بالحب اذا لم يكن قد
فعل ، كما كان شأن ايفاريسست !

واذ اودعت الخزانة تلك الاوراق المالية ، اخرجت من
سلة التطريز وشاحا ابيض ، كانت قد بدأت تطريزه ،
وعكفت على الشغل . وكانت نشيطة وذات دلال .. ولما
كانت تجيد تحريك الابرة بالفـسـريـزة ، لتفتن ولتصنع ما
تزدان به - في آن واحد - فانها كانت تطرز بأساليب تتباين
تباين أولئك الذين يشاهدونها .. فكانت تطرز بصدام
اكتراث امسام أولئك الذين كانت تريد أن تشير فيهم وجدا
لطيفا .. وكانت تطرز بدلال مائع لأولئك الذين كان يلذ لها
ان تكريهم قليلا . على انها راحت تطرز بعناية لايفاريسست
الذي كانت ترجو ان تشير فيه عاطفة خادة !

وما كانت « ايلودي » في مستقبل الشباب ، ولا كانت جيد
جميلة . بل ان المرء كان يجدها قبيحة في بادئ الامر ..

(٢٣) ولیم بیت : أصغر من تولوا رئاسة الوزارة في إنجلترا ، والد عدو
لثورة الفرنسية ، وقد تحالف مع النمسا ورومانيا ضدها .

فقد كانت سمراء ، تبدو في لون الزيتون ، تحت المنسدل الأبيض الكبير ، الذى كان معقودا بإهمال حول رأسها ، والذى كانت تفلت منه خصلات من شعرها صبغت بلون أزرق خفيف . . كما كانت عيناها جذوتين تلهبان محججسريهما فتسودهما . . وفي وجهها المسستدير ، البشوش ، ذى الوجنتين البارزتين ، والانف الافطس قليلا ، والقسمات البدوية التى تنم عن شهوة متأججة . . فى هذا الوجه وجد الرسام صورة لرأس تمثال لربة الرعى - كان قد اعجب به لدى آل « بورجيز » (٢٤) - وقد صيغ على جسد فاره ، جمع بين القداسة والشيطنة ! . . وكانت ثمة شعيرات قصيرة وخطت شفتيها الحاربتين المتأججتين ، وصدر بدا كأنه منتفخ بالحنان تحت الوشاح المعقود الطرفين ، على النمط الذى كان شائعا فى ذلك العام . وكان قوامها لينا ، وساقاها رشيقتين ، فكان جسمها المتين البنيان يتحرك كله بدلال جامع لذيد . أما نظرتها ، وأما انفاسها ، وأما اختلاجات جسدها . . كل شيء فيها كان ينادى القلب ، ويدعو الى الحب ! . . وكان منظرها خلف نضيد المتجر ، يوحى بصورة حورية من حوريات الرقص ، او راقصة « الاوبرا » التى تقوم برقصة وحشية عنيفة ، وقد تجردت من جلد النمر الذى ترقص فيه ، وصولجانها المتخذ من فروع الشجر ، وأكاليها ، فاذا بها ملتفة - بسحر ساحر - فى ستر الحشمة الذى يلف ربات البيوت فى لوحات « شاردان » .

وقالت للرسام : « ان أبى ليس هنا ، فانتظره لحظة . ولن يلبث ان يعود ! » .

(٢٤) آل « بورجيز » : أسرة رومانية اشتهرت بحبها للفن .

وكانت يداها السمر اوان الصغيرتان تجريان الابرّة خلال النسيج الرقيق ..

— هل تجذ هذا الرسم ملائما لذوقك يا سيد جاميلان ؟
 وكان جاميلان يعجز عن الكذب والرياء ، وقد اهاج الحب صراحته وألهب شجاعته ، فقال : « انك لتطرزين بمهارة ابنتها المواطنة ، ولكن — اذا شئت ان اصارحك القول — فان الرسم الذى نقلته ليس من البساطة بمكان ، كما انه عار اكثر مما ينبغى ، ويتمشى مع الذوق الكاذب الذى ساد نرنسا زمنا طويلا ، فى فن توشية الاقمشة والاثاث بالسقوف والجدران .. فهذه الفروع ، وهذه الاكاليل ، تعيد ذكرى ذلك الاسلوب التافه الزرى الذى كان شائعا فى عهد الطفيان . لقد تجدد الذوق ، وان كنا — للأسف ! — قد نطعنا شوطا بعيدا قبل التجدد . فقد كان لفن الزخرفة — منذ زمن لويس الخامس عشر المرذول — طابعا صينيا ، وكانت خزانات الثياب تصنع ببطون منتفخة ومقابض معوجه شكل سخيف ، ولا تصلح الا لان توضع فى النار لتدفئة لوطنيين .. ان البساطة وحدها جميلة ، فيجب الرجوع الى القديم . ان « دافيد » يقتبس رسم الاسرة والمقاعد عن نوش الاوانى الشرقية ورسم هيركولانوم » (٢٥)

ف قالت ايلودى : « لقد رأيت هذه الاسرة والمقاعد ، وانها بدیعة ! . لن يلبث الناس ان يعافوا غيرها .. اننى اعجب لقديم مثلك ! »

فاستأنف ايفاريسست حديثه قائلا : « بديع يا مواطنة ! . انك زخرفت وشاحك هذا بزخرفة اغريقية من اوراق

(٢٥) هيركولانوم : مدينة ايطالية قديمة ، اكتسبها ثوران بركان شجود ، سنة ٧٩ ، ثم كُشِفَت أعمال الخلو عنها فى القرن العاشر عشر .

البلاب ، ومن الافاعي أو السهام المتقاطعة ، لكان جديرا بفادة اسبرطية . . . ويك ! على ان يوسعك ان تحتفظى بهذا الرسم اذا عمدت الى تبسيطه ، والى تقويم خطوطه ! »

وسألتها عما ينبغى ان تمحوه من الرسم ، فانحنى على الوشاح ، واذا وجنتاه تماسان خصلات « ايلودى » . والتفت يدها على قطعة القماش ، وامترجت أنفاسهما ، فتدور « ايفاريسست » - فى تلك اللحظة - سرورا لا حد لها . ولكنها حين أحس بشفتى « ايلودى » قريبتين من شفتيه ، خشم ان يكون قد أساء الى الفتاة ، وارتد بسرعة .

وكانت المواطنة « بليز » تحب ايفاريسست جاميلان ؛ كانت تراه بديع الحسن بعينه الواسعتين النفاذتين ووجهه البضاوى الجميل ، وشحوبه ، وشعره الاسمر الغزير ، وطلعته المهيبة ، وهدوء اعصابه ، وصراحتهم سلكه ورزاقه كلامه الذى لم يكن ينطوى على شىء من الملق . والى جانب حبها له ، فانها توسمت فيه نبوغا فنيا متقدما ، يلبث ان يتفجر يوما فى تحفة فنية ، فيذيع اسمه . . . وزادها هذا حبا له . ولم يكن لدى المواطنة بليز اى ايمان بطهر الرجولة ، فلم يكن ليخرق مبادئها الخلقية أن يستلم الرجل لمواظفه وميسوله وشبههواته . ولقد احب « ايفاريسست » الذى كان عفا طاهرا ، ولكنها لم تحبه لان كان عفا ، وانما الفت فيه ما كان عليه من فضيلة تجعل بمنأى عن التزمت ، وعن الفيرة ، وعن الشسكوك ، وعن التوجس من الزاحمين والمنافسين !

على انها - فى تلك اللحظة بالذات - قضت بأنه كان متحفظا اكثر مما ينبغى . واذا كانت « اريسى » - التى ابتدعها خيال « راسسين » - قد احبت « ايبوليت »

واعجبت بما لهذا البطل الشاب من فضيلة خشنة غسير مصقولة ، فانما اقترن ذلك بالامل في ان تنتصر على هذه الفضيلة ، ولكنها لم تلبث - بعد قليل - ان وجدت فيه صرامة خلبية لم تدع قط او تلين لها . وكانت كلما وجدت الفرصة ، تجهر باكثر مما ينبغي - مما في نفسها - لتستدرجه الى ان يبوّج بما في نفسه . وعلى نهط « اريسى » الرقيقة هذه ، لم تكن المواطنة بليز جد بعيدة عن الاعتقاد بان المرأة خليفة بان تكون السبابة الى المصارحة ، فيما يتعلق بالحب ! . . . وكانت تقول لنفسها : « ان اشدّهم حبا هم اكثرهم حياء ، فهم يحتاجون الى معونة وتشجيع . وانهم - الى ذلك - لن السداجة بحيث ان في وسع المرأة ان تمهد نصف الطريق - بل اكثر - اليهم دون ان يلمحوا ذلك ، بان تهيب لهم مظاهر توحى اليهم بانهم قاموا بهجوم جرىء ، وظفروا بالنصر في الغزوا » . . . وهذا هو ما طمأنها الى مجرى الامور ، ففسد كانت تدرك عن يقين - وما كان لديها شك بهذا الصدد كذلك - ان ايفاريسيت كان قبيل ان تجعل الثورة بطلا ، قد احب كاي انسان ، امرأة متواضعة ، كانت حارسة ابواب المعهد الفنى « الاكاديمى » !

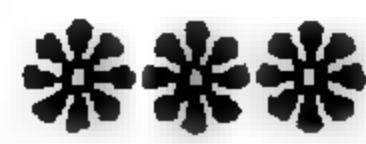
ولكن « ايلودى » - التى لم تكن قط ساذجة - كانت تعرف انواعا مختلفة للحب . وكانت العاطفة التى اوحاها « ايفاريسيت » اليها من العمق بحيث جعلتها تفكر في ان تربط حياتها به . كانت ميالة كل الميل الى الزواج منه ، لولا انها كانت تتوقع ان لا يقر ابوها ارتباط وحيدته بفنان مغمور ، فقير . فما كان « جاميلان » يمتلك شيئا ، بينما كان تاجر الصور قد جمع امورا طائفة . . . كان « لامور بانتر » يدر عليه الكثير ، وكان الاتجار فى الاوراق المالية

يدر عليه اكثر ، كما انه كان شريكا لاحد المتعهدين الذى كان يورد لفرسان الجمهورية التبى والشعر .

وموجز القول ان ابن بائع السكاكين بشسار (سان دومنيك) كان شخصية ضئيلة بالقياس الى ناشر الصور الذى كان معروفا فى اوربا بأسرها ، وكان معروفا بشخصه لدى أهل (بليزو) و (باسسان) و (ديدو) بوجه خاص ، والذى كان يتردد على دارى المواطنين « سسان بير » و « فلوريان » (٢٦) . . ولم تكن « ايلودى » سوى ابنة مطيعة ، ومن ثم فانها كانت تحرص على موافقة ابيها كضرورة لزواجها . وكان أبوها قد ترمل فى سن مبكرة ، كذا كائن سهل الخلق ، خفيف الروح ، كل همه الجسرى وراء الفتيات وإدارة اعماله ، فلم يشغل قط بابتنته ، بل أنه تركها تنمو حرة ، دون ارشاد ، ودون صداقة . . ولم يكن يشغل بمراقبة ابنته ، بل حرص على تجاهل مسلكها ، اذ كان يلمس فيها — وهو الخبير بالنساء — مزاجا حاميا ، ووسائل اخرى اقوى اغواء من الوجوه الجميل . . كانت اكرم من ان تتحفظ وتتحوط ، وأذكى من ان تضل . . حكيمة فى نزواتها ، لم ينسها قط ميلها الى الحب شيئا من قواعد اللياقة الاجتماعية . وكان أبوها يعرف — ولا حد لاغتيابته — هذه الفطنة . . ولما كانت قد أخذت عنده ادراكه التجارى ، وذوقه فى الممارسة والعمل ، فانه لم يشغل بالدواعى الفاضلة التى عاقت زواج فتاة لها هذا النضج ، واستبقاها فى البيت ، حيث كانت تعدل ربة بيت وأربعة من المساعدين . وقد أحست — وهى فى السابعة

(٢٦) جان بيير كلارى ذى فلوريان : ابن ابنة أخت فولتير ، برع فى كتابة الأساطير والقصص الخرافية ، واشتهر كرسام وشاعر وكاتب

والعشرين - بأنها قد بلغت من السن والتجربة ما يمكنها من أن توجه حياتها بنفسها ، دون أن تعاني أية حاجة الى أن تطلب مشورة أب صغير السن متساهل مشغول البال عنها ، أو الى أن تتبع ارادته . على أنه كان لزاما - لكى تتزوج من جاميلان - أن يهوى السيد بليز مستقبلا لهذا الصهر الفقير . فيشركه في الدار ، ويكفل له أعمالا كما كان يكفل لكثير من الفنانين . . . وقصارى القول ، أن يخلق له موارد بطريقة أو بأخرى . . . وهذا ما حدثت استحالة أن يعرضه أحد الرجلين وأن يقبله الآخر ، لاسيما وأنه لم يكن بين الرجلين سوى قدر ضئيل من التعاطف .



ولقد حيرت هذه العقبة « ايلودى » الرقيقة ، العاقلة . فتمثلت - في غير جزع - فكرة الارتباط بصاحبها بروابط سرية ، وأن تتخذ خالق الطبيعة شاهدا وحيدا على وفائهما المتبادل . ولم تر فلسفتها ما يستحق الاستنكار في اتحاد كهذا ، كان الاستقلال الذى تعيش فيه يجعله ممكنا ، وكان خلق ايفاريسست الأمين وفضائله تصفى عليه طمأنينة وضمانا . على أن جاميلان كان يجد عناء كبيرا فى أن يعول أمه العجوز ويقيم أودها ، ولم يكن فى حياة شديدة الضيق - كهذه - مجال لغرام ، ولو تسنى تبسيطه الى مجرد علاقة طبيعية (٢٧) . فضلا عن أن جاميلان لم يكن قد باح بعد بعواطفه ، ولا أفضى بنواياه .

وخالج الأمل الموطنة بليز فى أن تضطره الى ذلك عما قريب . فما لبثت أن أوقفت كلا من تأملاتها وأبرتها عن

الاسترسال ، وقالت : « أن هذا الوشاح لن يروق لى -
أيها المواطن ايفاريست - الا اذا راق لك أنت الآخر . فارجو
أن ترسم لى نموذجاً . وفى انتظاره سأنتكث ما تم عمله فى
غيابك ، أسوة بما فعلت بنيلوبى ! » (٢٨) .

فأجاب فى حرارة رزينة : « سأعكف على ذلك أيتها
المواطنة .. سأرسم لك حسام « أرمودىوس » .. سيفاً
فى اكليل من الزهور ! » . واستل قلماً ورسم سيوفاً وزهوراً
بالأسلوب التجريدى الرصين الذى كان يحبه . وراح - فى
الوقت ذاته - يشرح آراءه : « يجب على الفرنسيين - بعد
أن بعثوا من جديد - أن يطرحوا منهم كافة مخلفات
الاستعباد : الذوق السقيم ، والتكوين السقيم ، والرسم
السقيم .. لقد كان « واتو » ، و « بوشيه » ، و « فراجونار »
يعملون للطفاة وللعبيد ، فليس فى منتجاتهم لمحة من الأسلوب
الطيب والرسم الطيب ، ولا أثر للطبيعة والحقيقة .. إنما
فيها اقنعة ، ودمى ، واسماك ، وتقليد مضحك .. لسوف
تحتقر الأجيال القادمة أعمالهم التافهة . ولن تمضى مائة
سنة حتى تبلى لوحات « واتو » مهمة فى الأقبية ، ولسوف
يغطى طلبة الرسم لوحات بوشيه بتجاربهم ومسوداتهم
فى سنة ١٨٩٣ . لقد فتح « دافيد » الطريق ، وانبج الى
القديم ، ولكنه لم يصبح بعد بسيطاً ، عظيماً ، مجرداً ،
بالقدر الكافى . ولا يزال لدى فنائنا كثير من الأسرار التى
تتطلب دراسة ، فى نقوش الهيركولانوم ، وفى الرسوم الرومانية
البارزة ، وفى زخارف الآتية الشرقية » .

(٢٨) فى الأساطير الاغريقية ان « بنيلوبى » تكاثر عليها الخطاب ، بعد أن
غاب زوجها « اوليس » عشرين عاماً . ولتخلص منهم استمهلتهن حتى تفرغ
من سجادة كانت تنسجها . وراحت بالليل تنقص ما نسجته بالنهار . فصار
مثلاً لوفاء الزوجة .

وتكلم طويلا عن الجمال القديم ، ثم عادالى «فراجونار»،
فذكره فى مقت مشبوب : « أفترفينه أيتها المواطنة ؟ » .
فأومات « ايلودى » أن نعم ..

— واثك لتعرفين كذلك « جريز » الشيخ الذى يعتبر —
بلا شك — مضحكا بسترته القرمزية وسيفه ! .. ولكنسه
إذا قيس بفراجونار ، بدا فى مظهر حكماء الاغريق .. لقد
التقيت — منذ مدة — بهذا الكهل التعس ، وهو يتمشى
الهيئا تحت اقواس قصر المساواة ، وقد نثر « البودرة »
على شعره ، وبدا أنيقا ، مرتعش الأطراف ، مفرورا ،
بشعا .. وازاء هذا المنظر ، تمنيت لو أن أحد أصدقاء الفن
الاقوياء اقتدى بأبولو ، فعلقه الى احدى الاشجار ، وسلخه
— كما سلخ مارسىاس — ليكون عبرة خالدة للرسمامين
المسيئين !

ورمقته « ايلودى » بنظرة ثابتة من عينيها المرحتين
العابثتين ، وقالت : « انك لتعرف الكراهية ياسيد جاميلان،
فهل يؤخذ من هذا انك تعرف الـ ... ؟ ! »
— أهذا أنت يا جاميلان ؟

انبعث بهذا السؤال صوت جهورى .. صوت المواطن
بليز الذى كان قد دخل حانوته، وحذاءه يصرفان، ورصيعة
سلسلة ساعته تصلصل ، وذيل سترته يرفرف ، وقد
ارتدى قبعة سوداء كبيرة ، تصل حوافها الى كتفيه !

وحملت « ايلودى » سلتها ، وصعدت الى غرفتها .
بينما قال المواطن بليز : « وبعد يا جاميلان ! .. هل احضرت
لى شيئا جديدا ؟ »

فقال الرسام : « ربما ! » .. وراح يعرض فكرته : « ان

الآلهة عطشى !

أوراق اللعب عندنا تناقض وضعنا الأدبي تناقضا مذهلا .
فان اسمى « الفاليه » و « الروا » يخدشان أذننى أى
وطنى . ولقد ابتكرت وأعددت مجموعة من أوراق اللعب
الثورية الجديدة : يستعاض فيها عن بطاقات « الفاليه »
و « الروا » و « الدام » ببطاقات الحرية والمساواة
والآخاء . . أما « الآس » فيحاط ببطاقات ويسمى
« القانون » . . فنقول « حرية سيباتى » ، و « مساواة
يستونى » و « أخاء دينارى » ، و « قانون قلب » ! . .
واعتقد أن هذه البطاقات رسمت بمهارة رائعة ، فانى أنتوى
أن اعمل على أن يحفرها «ديماهى» حفرا دقيقا ، وأن احصل
على اذن بنشرها .

وأخرج الرسام من حافظته بعض صور كاملة بالألوان
المائية ، وبسطها الى تاجر الصور . ولكن المواطن بليز
رفض أن يتناولها ، وأشاح عنها قائلا : « أحمل هذه
ياصغرى الى المؤتمر ، الذى سيكرمك فى جلسته . ولكن ،
لا تطمع قط فى أن تحصل على « سول » (٢٩) واحد من
ابتكارك الجديد ، الذى ليس جديدا ! . . لقد كنت جد
متأخر فى يقظتك ، فان مجموعة ورق اللعب الثورية التى
ابتكرتها هى ثالث مجموعة أحضرت الى ، لقد عرض على
زميلك « دوجور » - فى الأسبوع الماضى - مجموعة من
ورق اللعب بها أربع بطاقات « عبقرية » ، وأربع « حرية » ،
وأربع « مساواة » . . واقترحت على مجموعة أخرى فيها
حكماء وشجعان و « كاتو » و « روسو » و « هانيبال » ،
ومن لا أدري غيرهم ! وكانت هذه المجموعة تمتاز على
مجموعتك يا صديقى ، بأنها مرسومة بخطوط غليظة ،

رمحفورة بالسكين على الخشب . ما اقل معرفتك بالرجال
حتى تعتقد ان اللاعبين يستعملون اوراقا رسمت على
طريقة ((داغيد)) ، وحفرت على طريقة ((بارتولوتري)) ! .



((لو انك زخرفت وشاحك هذا بزخرفة اغرينا

(ص ٤٣)

وانه لوهم غريب - كذلك - أن تعتقد انه لا بد من طريقة كهته لتعديل أوراق اللعب القديمة وفقا للآراء الحالية . ان « السانكيلوت » قد صححوا الأوضاع غير الوطنية من تلقاء أنفسهم ، بأن أطلقوا اسم « الطاغية ! » ، أو « الخنزير السمين » (٣٠) ، وانهم ليستعملون أوراق اللعب المطوية الأطراف ، القديمة ، دون أن يشتروا سواها . . ان أعظم استهلاك لأوراق اللعب يحدث في مباءات قصر المساواة ، فأنصحك أن تذهب الى هناك ، وأن تعرض على اللاعبين والمشرفين بطاقتك الممثلة للحرية ، والمساواة ، و . . ماذا سميتها « قانون قلب » . ثم تعال فقل لى كيف استقبلوك !»

وجلس المواطن « بليز » الى طاولة تسلم النقود ، وجعل ينقر بأصابعه سرواله الاصفر ، لينفض عنه ذرات من التبغ ، ثم قال وهو يرمق جاميلان فى عطف لطيف : « اسمح لى ان أقدم لك نصيحة ايها المواطن الرسام : اذا شئت ان تكسب عيشك فدع عنك أوراق اللعب الوطنية ، وآلهتك المنتقمة التى تطارد الجريمة ، وعباقره الحرية ، وارسم لى غيداً حسناً . ان حمية المواطنين نحو التجديد تفتقر مع الزمن ، والرجال يحبون النساء دائماً . فارسم لى نساء متوردات اللون ، ذوات اقدام دقيقة ، وأكف صغيرة . وضع نصاً عينيك أن أحدا لم يعد يهتم بالثورة ، ولم يعد هناك من يرغب فى سماع ذكرها ! »

واذا جاميلان يقفز من مكانه فجأة ، صائحا : « ماذا ! . . لم يعودوا يسمعون ذكر الثورة ! . . كيف تقول هذا واقرار الحرية ، وانتصارات جيوشنا ، والقصاص من

(٣٠) المقصود أنهم أطلقوا هذين الإسمين على الملك ، وبالتالي على بطاقتهم « الزوا » فى ورق اللعب .

الطفاة .. كلها أحداث ستدهش أبعاد الأجيال القادمة عن عصرنا ؟ .. كيف لم يتسن أن نهزم في كل هذه ؟ .. ماذا ! .. ان طائفة الشائر يسوع تقوم منذ ثمانية عشر قرناً ، فكيف يقال أن عقيدة الحرية ستمحى ولما تنقض أربع سنوات على قيامها ! »

ولكن « جان بليز » قال في شعور بالتعالى والتفوق: « انك تعيش في حلم يا صديقي ، أما أنا فأعيش في الحياة .. صدقني يا صاحبي ، فان الثورة معجزة ، وقد مكثت أكثر مما ينبغي .. خمس سنوات من التحمس ، خمس سنوات من العناق والفرح ، ومن المذابح ، ومن الخطب ، ومن « المارسليز » ، ومن دق النواقيس لاستنفار القوم ، ومن الارستقراطيين المعلقين على أعمدة المصاييح ، ومن الرؤوس المحملة على الحراب ، ومن النساء على الجياد التي تجر المدافع ، ومن أشجار الحرية تعلوها القلنسوة الحمراء ، ومن الفتيات والشيوخ يساقون في ثياب بيضاء في عربات الزهور ، ومن السجن ، ومن المقصلة ، ومن تجديد المؤن ، ومن المنشورات ، ومن الشعارات ، ومن المنصات ، ومن السيوف ، ومن « الكارمانيولات » .. انها لقائمة طويلة ! ثم أن القوم بدأوا يفطنون الى أنهم لا يفهمون شيئاً . لقد رأينا أكثر مما ينبغي من هؤلاء المواطنين الكبار الذين لم تقو كبرهم الى (الكابيتول) الا لتلقوا بهم بعد ذلك من أعلى صخرة (تاربييني) (٣١) ، أمثال نيكرو ، وميرابو ، ولافايت ،

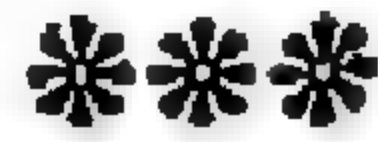
(٣١) الكابيتول تمجد للرب « جوبيتر » وحصن أقامه الرومان على جبل (كابيتولان) أو (تاربييني) ، أحد الأعمدة السبعة التي قامت عليها (روما) . وكان الرومان يكرمون الإبطال في المعبد ، ويلقون الخونة من فوق صخرة (تاربييني) القريبة منه . فالعبارة إشارة الى أن الفرنسيين كانوا لا يلبثون ان يهدموا الزعماء الذين يرفعونهم .

ويبلى ، وبيتون ، ومانويل ، وكثير سواهم ! .. ومن يدرينا
انكم لم تعدوا المصير ذاته لابطالكم الجدد ؟ .. لم يعد أحد
يدري .. »

فقال جاميلان بلهجة ردت تاجر الصور الى صوابه: « اذكر
اسماءهم أيها المواطن بليز . اذكر اسماء هؤلاء الأبطال الذين
نعدهم للتضحية ! » . فبادر بليز قائلاً ، وقد وضع يده على
قلبه : « اننى جمهورى ووطنى .. اننى أفوقك تحمسياً
للجمهورية ، كما اننى أكثر منك وطنية ، أيها المواطن
ايفاريست جاميلان . ولست ارتاب فى وطنيتك ، ولا اتهمك
بشيء من المروق . ولكن .. اعلم أن وطنيتى واخلاصى
للمصالح العام تشهد بهما أعمال كثيرة . أما مبادئى ، فهذه
هى : اننى أضع ثقى فى كل فرد قادر على خدمة الأمة .
وانى لانحنى أمام الرجال الذين يختارهم الراى العام للمهمة
الخطيرة ، مهمة السلطة التشريعية ، مثل مارا ، ومثل
رويسبير . وانى لعلى استعداد لأن أعاونهم فى نطاق وسائلى
البسيطة ، وإن أقدم لهم الجهود المتواضعة التى يستطيعها
المواطن الصالح . وان اللجان لتشهد على حماسى وعلى
ولائى . فبالاشتراك مع وطنيين صادقين ، وفرت الشعير
والعلف لفرساننا البواسل ، والأحذية لجنودنا . وقد
أرسلت - فى هذا اليوم بالذات - ستين ثورا الى (فيرنون)
لجيشنا فى (ميدى) ، عبر بلاد موبوءة بقاطعى الطرق ،
ومفلوبة أمام بعثات « بيت » و « كونديه » . اننى لا أتكلم،
وانما أعمل ! »

وأعاد « جاميلان » الصور ذات الألوان المائية بهدوء الى
حافظته ، التى عقد أربطتها ثم دسها تحت أبطه ، وقال وهو
يصر على أسنانه : « انه لتناقض غريب أن يساعد امرؤ

جنودنا على أن يحملوا في عرض الدنيا وطولها هذه الحرية
التي يخونها في موطن اقامته ، اذ يبت الاضطراب والقلق في
نفوس المدافعين عنها .. سلاما أيها المواطن بليز ! »



وقبل أن يعرج الى الزقاق الممتد بطول معهد الخطابة
والبيان ، التفت جاميلان - وقلبه مفعم بالحب وبالسخط -
ليلقى نظرة على القرنفلات الحمراء المزدهرة على حافة نافذة
معينة ..

وما قطع الشاب رجاءه في نجاة وطنه .. بل كان من جراء
عدم وطنية «جان بليز» أن راح جاميلان يزن ايمانه الثوري .
والقى لزاما عليه أن يعترف بأن هذا التاجر لم يكن بلا أسباب
ظاهرة ، اذ زعم أن أهل باريس لم يعودوا مهتمين بالأحداث .
فوا أسفاه ! .. كان من المؤكد - كل التأكيد - أن الحماس
الذي تجلى في الساعة الأولى ، قد أعقبه عدم اكتراث عام ..
فلن ترى ثانية تلك الجموع التي كانت تحتشد في سنة ١٧٨٩ ،
ولن ترى مرة أخرى تلك الملايين المنسجمة التي كانت
تتزاحم - في سنة ١٧٩٠ - حول المذبح الذي أقسم عنده
المتحدون (٣٢) .. لا بأس ! ان المواطنين الصالحين لن
يلبثوا أن يضاعفوا الحمية والحماس ، وأن يوقظوا الشعب
الوسنان ، بأن يخبروه بين الحرية والموت !

هكذا راح « جاميلان » يفكر ، وطيف « ايلودي » يعزز
روحه المعنوية . فلما وصل الى منطقة الميناء، أبصر الشمس

(٣٢) أقيم في ١٤ يوليو ١٧٩٠ احتفال عظيم ، لرود عام على سقوط
الباستيل . وهناك وجد النواب الجدد لثلاث وثمانين دائرة ، أن .. ر.د. من
الشعب جاموا يؤازرونهم في تأييد الدستور الجديد . وحضر لويس
السادس عشر الاحتفال ، وأقسم على صيانة هذا الدستور .

تنحدر عند الأفق ، تحت سحب ثقال ، شبيهة بجبال من
حمم متأججة .. وكانت سقوف المدينة تسبح في ضوء
ذهبي ، وزجاج النوافذ يعكس وميضاً متألها . فتمثلت
لخيال جاميلان رؤى «التيتان» (٣٣) ، وقد انقضت عليهم
الصواعق فأحالتهم حديداً محمياً .. واطلال العوالم القديمة
المضطربة .. و (ديسه) مدينة التحاس الأحمر !

واذ لم يكن يملك لقمة واحدة لأمه ولتفسيه ، فقد راح
يحلم بالجلوس الى المائدة التي لا نهاية لها ، التي يدعى
اليها الكون وتجلس اليها البشرية بعد بعثها وتجدها .
وفي انتظار يوم هذه المائدة ، راح يقنع نفسه بأن الوطن أم
وؤوم تطعم أبناءها البررة . وكافح - في ذهنه - سخریات
تاجر الصور ، وأخذ يحث نفسه على الايمان بأن فكرته بصور
أوراق اللعب الثورية كانت جديدة وصالحة ، وان بطاقاته
المصورة ، الملونة ، لن تلبث أن تحرز نجاحاً كبيراً ، وان
الثروة في متناوله حقا . ومضى يقول لنفسه : « لسوف
يحفر ديماهي البطاقات ، وسنتولى بنفسينا طبع ونشر
اللعبة الوطنية الجديدة ، وكلنا ثقة من بيع عشرة آلاف -
بسعر عشرين « سول » للواحدة - في بحر شهر واحد ! »

وفي تلهفه على تحقيق هذا المشروع ، يمم صوب ضفة
(لايران) ، حيث كان « ديماهي » يقيم ، فوق حانوت تاجر
للزجاج . ودخل عن طريق المتجر ، فأنبأه تاجر الزجاج
بأن المواطن «ديماهي» لم يكن في مسكنه . ولم يشر هذا
كثير دهشة لدى الرسام ، اذ كان يعرف أن صديقه أوتى

(٣٣) في الأساطير أن « التيتان » كانوا شعباً خليطاً من أبناء السمماء
والأرض ، تمردوا على الآلهة ، وحاولوا أن يرفقوا الى السماء ، بوضع جبل
فوق جبل . ولكن « جوبيتر » صعقهم . ويتخلون - في الأدب - رمزاً لمن
يحاولون تحقيق مشروعات مستحيلة .

ميلا الى التشرذ والانحلال . . . انما الذى كان يدهشه حقا ، هو أن يستطيع امرؤ مثسله أن يحفر كثيرا من الصصور ، وبمثل مهارته ، يرغم قلة مثابرتة على العمل . وراى جاميلان أن ينتظر صاحبه هنيهة ، فقدمت اليه زوجة تاجر الزجاج مقعدا . وكانت امرأة نكدة ، راحت تشكو الأحوال التى كانت قد ساءت بالرغم مما قيل من أن الثورة قد أغنت تجار الزجاج % بما حطمت من نوافذ !

وأرخى الليل سدوله ، فاستأذن جاميلان زوجة تاجر الزجاج فى الانصراف ، وقد عدل عن انتظار زميله . وفيما كان يجتاز الجسر الجديد (بون - نيف) ، راى فريقا من الحرس الوطنى مقبلين من رصفة (مورفوندى) ، وقد امتطوا الخيل ، وأمسكوا بالمشاعل ، وراحوا يفسحون طريقا بين المارة ، وقد اتبعثت من سيوفهم صلصلة عالية ، وهم يرافقون عربة صغيرة كانت تقل - ببطء - الى المقصلة رجلا لم يكن ثمة من يعرف اسمه . . كان أحد الأشراف السابقين ، وكان أول من قضت عليه المحكمة الثورية الجديدة بالاعدام . وكان يرى بعناء بين قبعات الحرس ، وقد جلس ويداه معقودتان خلف ظهره ، ورأسه عار يتأرجح . ووجهه نحو مؤخرة العربة . . والجلاد يستوى واقفا على مقربة منه ، وقد اتكأ على سياج العربة . . وكان المارة يقفون عن السير ، ويقولون فيما بينهم أنه - ولا بد - أحد الذين كانوا يجيعون الشعب % فيرمقونه فى غير احتفال .

واذ اقترب جاميلان ، تبين ((ديماهى)) بين النظارة ، وهو يزاحم الحشد ، ويحاول أن يشق طريقا خلال الموكب . فناداه ، ووضع يده على كتفه . والتفت اليه ((ديماهى)) ، فاذا هو شاب جميل ، قوى . . قيل فى معهد الفنون -

يوما - ان له رأس « باكوس » (٣٤) على جسد هرقل .
وكان اصداقائه يسمونه « باربارو » لشبهه بهذا النائب من
نواب الشعب .

وقال له جاميلان : « تعال ، فاني أريد أن أحدثك في مسألة
هامية ! » . ولكن ديماهي أجاب في عنف : « دعني ! » .
وألقي ببضع كلمات غير مسموعة ، وهو يتعجل لحظة
الاندفاع بين الحشد : « انني اتعقب امرأة من السماء ،
ذات قبعة من القش .. انها من العاملات في إحدى دور
الازياء ، ولها شعر أصفر مسترسل على ظهرها .. لقد
فصلتني عنها هذه العربة اللعينة .. لقد سبقتنى الفتاة ،
وهي الآن عند نهاية الجسر ! »

وحاول جاميلان أن يتشبث بسترته ، مقسما أن الأمر
الذي كان لديه هاما . ولكن ديماهي كان قد أفلت منه بين
الجياد والحرس والسيوف والمشاعل ، وانطلق في أثر الأنسة
المشتغلة بالازياء !

الفصل الرابع



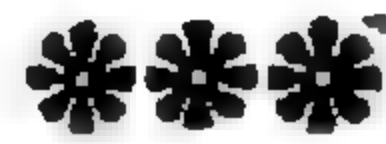
♦ كانت الساعة العاشرة صباحاً ، وشمس شهر ابريل
تغمر بالضوء أوراق الأشجار الفضة . . وشاعت في الهواء
عذوبة رقيقة ، بعد أن نقته الزويدة - التي هبت بالليل -
من أوشابه . وبين فترات طويلة ، كان أحد الفرسان يمر
في درب الأرامل (آليه ديه فيف) ، فيبدد السكون الموحش .
وعلى حافة الدرب الظليلة - في مواجهة كوخ « ليلواز
الحسناء » - راح « ايفاريسست » ينتظر « ايلودي » ، على
مقعد خشبي . ولم يكن قد عاد إلى « لامور بانتر » منذ
اليوم الذي التقت فيه أصابعهما على قماش الوشاح ،
وامتزجت فيه أنفاسهما . إذ أن كبرياءه - التي كانت تتحدى
كل ألم - وحياءه الذي كان يزداد جموحاً باستمرار ، إبقياه

بهنای عن « ايلودى » . ولقد كتب لها خطابا زريشا ، حزينا ، حارا ، عبر فيه عن الأمور التي ساءته من المواطن « بليز » ، وأعلن - وهو يكتنم هواه ، ويتحاشى ذكر لوعته - مزمه على أن لا يعود الى متجر الصور . وأبدى فى تنفيذ هذا العزم حزما فوق ما تحتمله أو تفره أية عاشقة !

على أن « ايلودى » كانت ذات طبيعة على النقيض من هذا ، وكانت حريصة على أن تدود عن مصلحتها فى كل المناسبات ، ومن ثم فإنها عكفت لفورها على التفكير فى استعادة صاحبها . ولقد خطر لها أن تذهب فتزوره فى مسكنه . . فى الرسم القائم فى ميدان (تيونفيل) . ولكنها كانت تدرك أنه ذا مزاج آس ، وقد حدثت من خطابه أن نفسه محتاجة ، ولكنها خشيت أن يبسط سخطه على الأب فيلف به الابنة ، وأن يكون رايه قد استقر على أن لا يراها ثانية ، فرأت أن من الأفضل أن تتيح له لقاء عاطفيا شاعريا لا يستطيع فيه أن يتملص من رؤيتها ، بل يتسع لها الوقت - خلاله - لأغرائه وأرضائه ، وتتأمر معها - فيه - العزلة على فتنه والتغلب عليه .

وكانت الحداثق الانجليزية جميعا - لا سيما المتنزهات الحديثة - تضم فى تلك الأيام أكواخا أقامها أساتذة فى فن المعمار ، لتستهوى ما فى نفوس سكان المدن من نزوات فطرية برية . فكان كوخ « ليلواز الحسناء » - الذى شغله بائع لشراب الليمون - يقوم بمظهره المتواضع على اطلال حصن قديم ، قلدت بمهارة فنية ، بحيث امتزجت فى شكله فتنة الريف وكآبة الاطلال . وكأنما لم يكن يكفى لاثارة النفوس الحساسة مرأى كوخ وحصن متهدم ، فأقام بائع شراب الليمون قبرا تحت صفصافة ، وعمودا تعطوه إحدى الجرار

الجنائزية وقد نقش عليها : « من كليونيس الى حبيبها الوفي
آزور » ! .. اكواخ ، واطلال ، وقبور .. لقد اقامت
الارستقراطية - قبل هلاكها - في المتزهات الموروثة هذه
الرموز التي تنم عن اليأس ، والفناء ، والموت ! ..
وقد أصبح سكان المدن الوطنيون يستطيعون الشرب
والرقص وتطارح الحب في هذه الاكواخ الزائفة ، وفي ظلال
دهاليز زائفة اصطنع فيها البلى والتهدم ، وبين قبور
زائفة .. فلقد كانوا سواء في حب الطبيعة والتعلمذ على
« جان - جاك » ، وكانوا سواء اذ اوتو قلوبا مرهفة الحس ،
مفعمة بالفلسفة !



ولما كان « ايفاريست » قد وصل الى الملتقى قبل الموعد
المحدد ، فانه راح ينتظر ، وكأنما كان قلبه بندول ساعة
يحصي الدقائق بخفقاته .. ومرت شرذمة من الجند تسوق
بعض المسجونين .. وبعد عشر دقائق ، تسلفت الى الكوخ
امراة في ثياب كلها وردية اللون ، وقد حملت في يدها باقة
من الزهر - على مألوف العسادة اذ ذاك - وفارس ذو
قلنسوة ثلاثية الاركان ، وسترة حمراء ، وصديري وسروال
مخططين . وكانا يبدوان معا على نسق عشاق العهد الماضي ،
مما كان يوحى - مصداقا لقول المواطن بلير - بان ثمة
طباعا في بعض النفوس ، لم تبدل الثورة منها شيئا البتة !
وبعد لحظات اخري ، اقبلت من (روبي) او من (سان كلو)
امراة عجوز ، حملت على ساعدها صندوقا اسطوانيا ،
طللى بالوان زاهية . فجلست على المقعد العريض الذي كان
جاميلان يجلس عليه منتظرا . ووضعت امامها صندوقها
الذي كان غطاؤه يحمل ابرة متحركة ، تشير الي السلع

التي تستخرج من جوفه . فقد كانت العجوز المسكينة تباع الحظ لصغار الأطفال ، في الحدائق . كانت تتجر في « الحظوظ المشتهاة » ، وهو اسم جديد أطلق على نوع قديم من الحلوى ، كان يسمى منذ عهد لا سبيل الى تذكره بـ « النسيان » . . وسواء لأن اسم « النسيان » يوحى بغضاضة الفناء ومرور العمر ، أو لأن الاهواء قد تقلبت ، فان « النسيان » أصبح يسمى « الحظ المشتهى » !

ومسحت العجوز العرق عن جبينها بطرف من مرولتها، ثم رفعت رأسها تنفث شكاواها للسماء ، متهمة الله بالظلم اذ جعل الحياة عسيرة على مخلوقاته . فقد كان زوجها حارسا لموقع لصيد السمك في (سان كلو)، على الضفة النهر . وكانت هي تفسد - في كل يوم - الى (الشانزليزيه) تدق صندوقها بعصاتها وتنادى : « هاهى ذى الحظوظ المشتهاة ياسيداتي ! » . . وما كان الزوجان ليحصلوا من كل هذا العمل على ما يقيم أودهما في شيخوختهما .

واذ أنست من الشاب - الذي كان يجاورها على المقعد - ميلا الى سماع شكاواها ، أسهبت في شرح علة شقائها . . تلك هي الجمهورية التي حرمت الفقراء من لقمة العيش ، حين جردت الأغنياء من ثرواتهم . ولم يك ثمة ما يدعو للأمل في تحسن الأحوال ، بل ان العجوز كانت ترى - من بعض الشواهد - أن الأمور لم تكن تسير الا من سيء الى أسوأ . ففي (نانتير) ولد طفل وله رأس أفعى ، وأنقضت إصاعقة على كنيسة (روبي) فصهرت الصليب الذي يعلو برج الجرس ، وشوهد ذئب مسعور في غابة (شافيل) . .

كما أن رجلا ملثمين سجموا موارد الماء ، ونشروا في الهواء
مساحيق تجلب الأمراض (٣٥) ..



ورأى ايفاريسست « ايلودي » تثب من عربة ، فجسرى
نحوها . وكانت عينا الشابة تلمعان في الظل الرقيق الذى
ألقته عليهما حواف قبعتهما المصنوعة من القش .. والشفتان
تبتسمان ، وهما أكثر حمرة من القرنفلات التى أمسكها
بيدها . وعلى صدرها تقاطع طرفا وشاح أسود ، ليلتقيا
في عقدة على الظهر . وكان ثوبها الأصفر يشف عن حركات
الركبتين السريعة ، وينحسر عن القدمين اللتين انتعلتا
حذاءين مبسوطي النعلين (بلا كعبين !) . وكان الفخذان
متحررين - تقريبا - من قيود الثوب ، اذ أن الثورة كانت
قد حررت أزياء المواطنين ، بينما كانت « الجونلة » تنتفخ
فوق الردفين ، فتموه شكلهما اذ تضاعف من حجميهما ،
وتخفى الحقيقة اذ تصورها مضخمة !

وود ان يتكلم ، فاستعصت عليه الكلمات ، ولإم نفسه
على هذا الارتباك الذى كانت « ايلودي » تفضله على ارق
ترحاب .. ولاحظت أنه كان قد عقد رباط رقبته بأناقة
تفوق ما اعتاد ، فاستبشرت بهذه البادرة . وبسطت اليه
يدها قائلة : « لقد أردت ان اراك لاتحدث اليك . اننى لم
أرد عن خطابك ، اذ أنه ساءنى ، ولم أعثر فيه على شيء من
نفسك .. ولو أنه كان طبيعيا ، لجاء أكثر لطفا مما هو .
وأنه لمن الاساءة الى شخصيتك والى روحك ان تفكر في

(٣٥) كانت الشائعات الخرافية ، التى تصادف موقعا من نفوس الجهلاء
السذج ، سلاحا من الاسلحة التى استفلها أجداء الثورة ،

العزوف عن الرغبة في العودة الى التردد على « لامور بانتر » ،
لجورد أنك صادفت خلافا بسيطا في السياسة مع رجسلي
يكبرك سنا بكثير . الا ثقي من أنه ليس لك أن تخشى البتة
أن يسىء أبى استقبالك ، اذا ما جئت لتزورنا . أنك لاتعرفه ،
فهو لا يذكر ما قاله لك ، ولا ما رددت به عليه . ولست
أجزم بأن ثمة تعاطفا قويا بينكما ، ولكنه لا يكن لك موجهة .
وأصارك بأنه لا يشغل كثيرا بك . . ولا بى أنا ، فهو
لا يفكر الا في شؤونه وملذاته ! »

وسارت على مهل نحو الاشجار المتكاثفة حول الكوخ
فتبعها على شيء من المضض ، اذ كان يعلم أن هناك ملتقى
العشاق الذين يشترون الهوى والعاشقات اللائى يبعنه
ومرتع الحب العابر . واختارت الشابة مائدة كانت اكتم
الموائد تواريا عن الانظار .

— ما أكثر ما لدى من اشياء أريد أن أقولها لـ
يايفاريسست ! . . ان للصدقة حقوقا ، فهل تسمح لى بأن
أقيد منها ؟ . . لسوف اتحدث اليك كثيرا عن نفسك ،
وقليلا عن نفسى ، اذا راق لك ذلك !

وكان بائع شراب الليمون قد أحضر قنينة وكوبين
فصبت الشراب بنفسها في مهارة ربة البيت ، ثم راحت
تروى له قصة طفولتها . . وحدثته عن جمال أمها التي
كانت تحب أن تستعيد ذكراها بحكم عاطفة البنوة ، ولأن
كانت مصدر جمالها الشخصى . . واطنبت في وصف بأن
أجدادها وشهامتهم ، اذ كانت تعتر بدمها « البورجوازي »
وحكت كيف فقدت تلك الأم الرائعة — وهى فى السادس
عشرة — فأصبحت تعيش بلا حنان وبلا نصير ، فكونت

أنفسها بنفسها لتصبح على ما كانت عليه : نشيطة مرهفة
لحس ، شجاعة .

واردفت قائلة : « لقد قضيت يا إيفاريست صباى فى جو
حزين موحش الى الدرجة التى مكنتنى من أن أعرف قيمة
قلب مثل قلبك . وأصارك باننى لن أتخلى من تلقاء
نفسى ، ولا دون نضال ، عن عطف ظننت أن لى أن أعول
عليه ، وكنت أعتر به ! »

فرمقها إيفاريست بحنان ، وقال : « أمن الممكن حقا -
بأيلودى - أن أكون شيسا يذكر لديك ؟ .. هل لى أن
أعتقد هذا .. ؟ » . وأمسك خشية أن يجمع به القول ،
نفسى الى صداقة وثيقة كهذه . فمدت اليه يدا صغيرة
بارية ، خرجت - الى منتصف الساعد - من كمين
طويلين ضيقين مزدانين بـ « الدانتيللا » ، وقد ارتفع صدرها
الى أنفاس طويلة . وقالت : « أنسب الى يا إيفاريست كل
العواطف التى تبغى أن تكون لدى نحوك ، ولن تكون مخدوعا
فى ميول قلبى ! »

بـ إيلودى ، إيلودى ! .. أصبح هذا الذى قلت ؟ ..
هل ترددينه ثانية اذا عرفت .. ؟

وأمسك مترددا ، ففضت بصرها .. وأكمل عبارته
بصوت خفيض : « .. اننى أحبك ؟ »

وتخرج وجهها عند سماع هذه الكلمات الأخيرة ، فقد
أنت عذبة . وبينما طفحت عيناها بنشوة حنون ، طفت -
الى الرخم منها - ابتسامة ساخرة رفعت ركنا من شفتيها ..
وقالت لنفسها : « كأنه يظن أنه الأسبق الى البوح ؟ ! ..
إلهه يخشى أن يكون قد أغضبني ! »

وقالت له في ترفق : « ألم تر اذن يا صديقى اننى ..
أحببتك ؟ »

وخيل اليهما أن ليس فى العالم سواهما . وفى غمرة
النشوة ، رفع ايفاريسيت عينيه صوب السماء المتألقة
بالنور والزرقة الصافية ، وهتف : « انظرى ! ان السماء
ترقبنا ! .. انها لفاتنة وعطوف مثلك ، يا أعز حبيبة ! ..
ان لها اشراقك ، ولطفك ، وابتسامتك ! »

وأحس بأنه قد امتزج بالطبيعة كلها ، فأشركها معه فى
حبوره وتوفيقه . وبدأ لعينيه أن زهور الكستناء كانت
تشتعل كالشموع ، وأن أشجار الحور كانت تتأجج كمشاعل
سامقة ، لتحتفل بخطبتهما .

وانتشى اغتباطا بنفوذه وعظمته . أما هى فقد أسلمت
نفسها للضعف ، اذ كانت بطبعها أكثر رقة ونعومة وليونة
وانقيادا . وما أن رآته ينهزم ، حتى خضعت له .. وبعد
أن جعلته تحت سلطانها ، جعلت منه السيد والبطل والآله،
وراحت تتحرق شوقا الى أن تطيعه ، وأن تتعبد اليه ،
وأن تقدم له نفسها . وفى ظلال الخيميلة ، منحته قبلة
طويلة ، ملتهبة ، مالت برأسها تحت وطاتها .. وبين ذراعى
ايفاريسيت أحست بجسدها ينصهر عن أخسره ، وكأنه
شمع !

ومكثا طويلا فى شغل بنفسيهما عن الكون كله . وراح
ايفاريسيت يشرح — بوجه خاص — آراءه التى كانت خالصة
نقية ، ومبهمة فى آن واحد ، والتى ألقت ايلودى فى احضان
الحيرة .. أما « ايلودى » — من ناحيتها — فقد تحدثت عن
أشياء رقيقة ، نافعة ، وذات طابع شخصى . حتى اذا قدرت
أن ليس بوسعها أن تمكث أكثر من ذلك ، نهضت فى عزم ،

فأعطت حبيبها القرنفلات الحمراء الثلاث ، التى تنمو فى نافذتها ، وقفزت برشاقة الى العربية التى كانت قد جاءت بها . وكانت عربية من عربات الأجرة ، مطلية باللون الأصفر ، ومرتعة جدا فوق العجلات . ولم يكن فيها ما يستغرب اللهم الا الحوذى . ولكن جاميلان لم يكن قد اعتاد - هو ومن كانوا يحيطون به - ركوب العربات . فما ان رأى العربية تجرى على عجلاتها ، حتى تولى قلبه انقباض ، وأحس بشعور محزن يستبد به ، وبنوع من الهوس العقلى . خيل اليه أن حصان العربية كان يقل « ايلودى » من حيث الواقع والحاضر ، منطلقا بها الى مدينة غنية طروب ، والى مساكن مترفة مفعمة بالمباهج ، لن يقدر له هو ان ينفذ اليها قط !



واختفت العربية ، فهذا اضطراب ايفاريسست ، وأن بقيت فى نفسه لوعة حادة . وشعر بأن الساعات المفعمة بالحنان والسلوى التى عاشها ، لن يقدر له ان ينعم بمثلها ثانية . وانطلق خلال (الشانزليزيه) ، حيث كانت النسوة يجلسن على مقاعد من الخشب ، وهن فى أثواب خفيفة ، يتجاذبن اطراف الحديث ، بينما كان أطفالهن يلعبون تحت الاشجار ، وصادف امرأة تبيع حلوى « الحظوظ المشتهية » ، وقد حملت صندوقا على هيئة الطبل ، فذكرته ببائنة الحلوى التى صادفها فى درب الأرامل (آليه ديه فيف) ، وخيل اليه أن دهرًا من حياته قد انقضى بين المصادفتين .

وعبر ميدان الثورة . . وفى حدائق (التويلرى) سمع الضجيج الهائل المؤلف فى الايام الحافلة بالاحداث ، ينبعث من بعيد . . تلك الاصوات المتصاعدة فى اجماع ،

والتي كان أعداء الثورة يزعمون أنها ستقضى على نفسها بنفسها ، فلا تقوم لها قائمة قط . وغذ الخطى نحو الصخب المتضاعف . حتى بلغ شارع (أونوريه) ، فألفاه زائرا بحشد من الرجال والنساء ، الذين كانوا يهتفون : « الحياة للجمهورية . . الحياة للحرية ! » . وكانت أسوار الحدائق ، والنوافذ ، والشرفات ، وسطوح المنازل ، غاصة بالنظارة الذين راحوا يلوحون بالقبعات وبالمناديل . وكان ثمة جندي يفسح طريقا للموكب الذي ضم موظفي البلدية ، والحرس الوطني ، والمدفعية ، والشرطة ، والفرسان ، وقد التفوا حول رجل كان يتقدم ببطء على رؤوس المواطنين . . . رجل أصفر الوجه ، طوق جبينه تاج من زهور أشجار السنديان ، وقد التف جسده في عباءة قديمة خضراء ، ذات ياقة من فراء السمور . وكانت النساء يرمينه بالازهار ، وهو بجيل حوله نظرات ثاقبة من عينيه الصفراوين ، كما لو كان يبحث - في هذا الحشد المتحمس - عن مزيد من أعداء الشعب ليفضحهم ، ومن الخونة ليسوقهم للعقاب . وعندما مر بجاميلان ، ضم هذا صوته الى مائة ألف صوت ، وصاح وقد خلع قلنسوته : « ليحي مارا ! »

ودخل الزعيم المظفر قاعة « المؤتمر » وكأنه القضاء ؛ بينما تفرقت الجموع على مهل . وجلس جاميلان على حجر بشارع (أونوريه) ، وهو يضبط على قلبه بيده ليخفف من حدة خفقاته . فان ما رآه ملأ صدره بانفعال علوى ، وبتحمس مشبوب . فقد كان يبجل « مارا » . . كان يعتز بهذا المريض ذي الأعصاب الملهبة ، الذي كانت القرع تنهش جسده ، والذي كرس ما تبقى من قواه لخدمة الجمهورية ، والذي كان يستقبله - في منزله المتواضع ، المفتوح الأبواب

للجميع - وهو باسط ذراعيه ، فيحدثه في حمية عن الصالح العام ، ويسأله أحيانا عن مشروعات الخونة الأشرار .
 وكان جاميلان جد مغتبط لأن أعداء هذا الزعيم البار قد مهدوا لانتصاره بتآمرهم على هلاكه . ولقد حمد للمحكمة الثورية أنها إذ برأت ((صديق الشعب)) ردت الى المؤتمر أشد المشرعين حمية ، وأوفرهم صدقا وطهرا .
 وتمثل لعينيه ذلك الرأس الملتهب بالحمى ، المطوق بأكليل الوطنية . . والوجه الذى كان يحمل طابع الاعتزاز بالفضيلة، والحب المجرد من الضعف . . ذلك الوجه المكيدود ، المشوه ، الذى يحمل برغم ذلك سمات القوة - والفم الملتوى ، والصدر العريض . . ذلك القوام الربعة الذى كان مشرفا على الفناء ، والذى بدا كأنه يقول لمواطنيه من فوق محفة النصر المؤلفة من اكتاف ورؤوس الأحياء : « كونوا - مثلى - محبين للوطن حتى الموت ! »

واقفر الشارع ، وكساه الليل بظلمته . واقبل العامل الموكل بإيقاد المصابيح ، وقد حمل مشعله ، فمغم جاميلان :
 « أجل . . حتى الموت ! »

الفصل الخامس



♦ في الساعة التاسعة صباحا ، وجد ايفاريسيت « ايلودي » في انتظاره على أحد مقاعد حديقة (لوكسمبورج) .

كانا مذ تبادلا الاعتراف بالحب - منذ شهر - يتزاوران: اما في « لأمور بانتر » ، أو في مرسيم ميدان (تيونفيل) . وكانت لقاءاتهما جد عاطفية ، يصحبهما دائما تحفظ كان يفرضه على حبهما طابع شخصية المحب الرزين الورع ، والمواطن المؤمن بالطبيعة ، والذي كان على استعداد لأن يتحد مع حبيبته العزيزة أمام القانون ، أو أمام الله وحده . تبعا للظروف - ولكنه لم يشأ أن يفعل ما لم يكن في وضع النهار ، وجهارا . ولقد أدركت « ايلودي » - تمام الإدراك -

ان هذا العزم كان شريفا كريما ، ولكنها فى قنوطها من زواج كان كل شىء يجعله مستحيلا ، وفى أباتها ان تتحدى قواعد العرف الاجتماعى ، تمثلت - فى قرارة نفسها - رابطة يكسبها التكنم طابع الحشمة ، الى أن يجعلها مرور الزمن جديرة بالاحترام . وفكرت فى أن تتغلب يوما على وساوس عاشق أكثر وقارا مما ينبغى . ولم تشأ أن تتلكأ فى الكشف له عن بعض الأمور الضرورية ، فسألته أن يلقاها ساعة فى الحديقة الخالية من الرواد ، بالقرب من دير (شارترو) .

ورمقته بنظرة كلها حنان وصراحة ، وتناولت يده فأجلسته الى جانبها ، وقالت له وهى تستجمع كل قواها الفكرية :

- اننى أقدرك يا ايفاريسست الى الدرجة التى ينبغى عندها الا اكتمك شيئا . اننى لأعتقد اننى اهل لك ، وما كنت لأصبح كذلك اذا لم أقل لك كل شىء . فانصت الى ، وكن قاضيا فى امرى . لست احمل وزر اثم ألوم عليه نفسى ، وضيعا كان أو مجرد عمل أنانى . لقد كنت ضعيفة ، وغريرة اصدق كل شىء بسهولة . . . ولا تفعل يا حبيبى الظروف العسيرة التى كنت فيها ، وانك لتعرفها . . . فقد حرمت من الأم ، وكان أبى لا يزال شابا ، فلم يفكر الا فى ملاهيته ، ولم يشغل باله بأمرى . وكنت مرهفة الحس ، اذ وهبتنى الطبيعة قلبا رقيقا ، ونفسا كريمة . . . ومع أنها لم تأب على ادراكا أكيدا . . . وسليما ، الا أن العاطفة كانت تسود العقل عندى ، فى ذلك الوقت . وبالأأسف ! . . . وكان من الممكن ان تطفى عليه اليوم كذلك يا ايفاريسست ، لولا أن العقل والعاطفة اتفقا وأجمعا على أن أمنحك نفسى بأكملها ، والى الأبد !

وكانت تتكلم بقدر ، ويجزم . . كان حديثها معددا من قبل ، فقد عقدت العزم على الأدلاء باعترافها هذا منذ زمن طويل ، لأنها كانت صريحة ، ولأنه كان يروقها أن تحصلو حذو « جان - جاك روسو » ، ولأنها كانت تقول لنفسها عن منطق وتفكير : « لسوف يعترف ايفاريست يوما أسراراً لست أكتنها وحدي » ومن ثم فالخير في اعتراف تكون حريتي - في ارساله أو امساكه - عاملاً يستوجب لي الثناء . . فأطلعه على ما سوف يعرفه يوما فلا يستوجب اذ ذاك سوى خزيي وعاري ! » . ونظرا الى ما كانت عليه من رقة ، ولما فطرت عليه من وداعة ، فانها لم تر نفسها عظيمة الحرم . ومن ثم كان اعترافها أقل ابلاها وعناء . وقد آلت - من قبل - أن لا تقول سوى ما كان قوله ضروريا لازمة . ومن ثم فانها تنهدت قائلة : « آه ! . . لماذا لم تسبقك الاقدار الى ، يا عزيزي ايفاريست ، في تلك الفترة التي كنت فيها وحيدة ، مهملة ؟ » . . .

وكان « جاميلان » قد أخذ طلب « ايلودي » اليه أن يكون قاضيا في أمرها ، بمعناه الحرفي . وأذ كان معددا - بطبيعة دراسته الأدبية - لماوسة البت في الأمور الشخصية ، فقد تأهب لتلقى اعترافات « ايلودي » . فلما ترددت ، أوما لها كي تتكلم . فقالت في بساطة تامة :

- لقد قدر لي أن يعجب بي يوما شاب كانت خصاله الطيبة قليلة بالنسبة لما أوتى من خصال ذميمة ، ولكنه لم يكن يبدي سوى الأولى . . فشغل بي في الجاح أدهش أهله ، اذ كان في مقتبل الشباب ، مفرط الحسن ، على علاقة بنساء فائنات لم يكن يخفين شيئا من شفهن به . وما اهتممت به لجمالها ، ولا للباقة . . ولكنه عرف كيف

يؤثر على ، بما راح يشهدني عليه من حبه ، فاعتقدت أنه قد
 أحبنى حقا .. كان رقيقا ، ملحاحا ، ولم ابتغ أن أرتبط
 بغير قلبه .. وكان قلبه موقعا ! .. لست أوجه الاتهام



الا لنفسى ، وهذا اعترافى بذنبها ، وليس بذنبه . لست أشكوه ، فانه لم يعد سوى غريب بالنسبة لى . آه ! .. أقسم لك يا إيفاريست أنه أصبح بالنسبة لى كأنما لم يكن له وجود البتة !



وسكنت . فلم يجر جاميلان جوابا ، بل عقد ذراعيه ، وجمد بصره فى اكتئاب . وراح يفكر فى حبيبته وفى أخته « جولى » ، فى آن واحد .. كانت « جولى » قد أنصتت - هى الأخرى - الى عاشق ، ولكنها - كما جال بفكره - كانت على النقيض من « ايلودى » التعسة .. فقد استسلمت للفتنة ، لا نتيجة خطأ قلب مرهف الحس ، وإنما لتحظى بالشرف والمتعة ، بعيدا عن أهلها . وكان جاميلان - فى صرامته - قد أدان أخته ، وقد مال الى أن يدين حبيبته ! وعادت « ايلودى » تقول بصوت مفرط النعومة والعذوبة : - كنت مليئة بالفلسفة (٣٦) ، وكنت اعتقد ان الرجال امناء بطبيعتهم . وكان سوء حظى ان التقيت بحبيب لم تهديه مدرسة الطبيعة والمبادئ الخلقية ، ولكن الترهات والنعرات الاجتماعية ، والطموح ، وحب النفس ، وسوء التقدير للشرف ، جعلته أنانيا ونذلا !

وانتهجت هذه الكلمات - المنتقاة من قبل - الاثر المنشود . فلانت نظرة جاميلان ، وسألها : « من كان ذلك الذى اغواك ؟ .. أفأعرفه انا ؟ » - لا ، انك لا تعرفه .

(٣٦) تقصد فلسفة « روسو » الذى كان يدعو الى الحب الطبيعى ، والى ان يتعاشر المحبان دون عقد رسمى ، اكتفاء بأنهما يشهدان الله والطبيعة على زواجهما !

— سميه لى !

وكانت قد توقعت هذا السؤال ، وعقدت العزم على ان لا تجيبه . وبسطة حجتها قائلة : « ارجو ان تعفينى . . لمصلحتك ولمصلحتى على السواء . . فانى ارانى قد قلت اكثر مما ينبغى ! » . فلما الح قالت : « ان المصلحة المقدسة لجنبنا تستوجب ان لا اقول شيئا يكشف لدهتك ذلك . . الغريب . . اننى لا ابغى ان ألقى على تفكيرك شبحا يثير غيرتك . . لا أريد أن أقيم ظلا مزعجا بينى وبينك . وما ينبغى ان اعرفك بهذا الرجل فى الوقت الذى نسيته انا فيه ! »

وراح « جاميلان » يلح عليها لتبوح له باسم « الفاوى » وهو اللقب الذى أخذ يستخدمه فى اصرار ، اذ انه لم يرتب فى ان « ايلودى » قد اغويت ، وخدعت ، وقرر بها . . بل انه لم يتصور ان من الممكن أن يكون الامر قد جرى على الوجه الآخر ، وان « ايلودى » قد انصاعت للشهوة — الشهوة الجامحة — وانها اصبحت الى النصائح المسموعة المنبعثة من لحمها ودمها . . لم يتصور قط ان هذه المخلوقة المثيرة ، الناعمة العواطف . . ان هذه الضحية الجميلة قد قلمت نفسها بمحض اختيارها ! . . بل رأى — لكى يرضى خياله — انها ولا بد قد أخذت قسرا او بالحيلة ، فاغتصبت ، وراحت تتخبط فى احابيل نصبت فى طريق كل خطوة من خطواتها . ومضى يوجه اليها اسئلة تناسب الحال ولكنها دقيقة ، ومحرجة ، ضيقت الخناق عليها . سألها : كيف نشأت تلك الصلة ، وهل كانت طويلة الأجل أو قصيرة ، وهل كانت هادئة أو محفوفة بالمتاعب ، وعلى أى وجه انقطعت . . وكان لا يكف عن العودة الى السؤال عن الوسائط التى استخدمها ذلك الرجل للاغواء ، وكانها كان يوقنا من انه

استخدم وسائل عجيبة ومزعجة . على ان كل هذه الاسئلة كانت عبثا ، فقد لاذت الشاب بالصمت في اصرار رقيق لين ، وظل فمها مغلقا ، وعيناها مفروقتين .

غير انها لم تلبث ان اجابت ، عندما سألها ايفاريست اين كان ذلك الرجل في تلك الآونة : « لقد غادر المملكة ! » . واستدركت في عجلة : « .. فرنسا » . فصاح جاميلان : « اذن فهو مهاجر ! »

ورمقته في صمت ، وقد طمانها - واحزنها في الوقت ذاته - ان تراه يوحى الى نفسه بحقيقة تمشي مع مشياعره السياسية ، وتسبغ على غيرته لونا يعقويا لم يكن يكبد احدهما ثمنا !

والواقع ان عشيق ((ايلودي)) كان كاتباً صغيراً لدى أحد المحامين .. وكان فتى بارع الحسن ، مرحاً كالجدول الطروب ، تدلهمت الفتاة في حبه ، وظلت ذكره تبعث دفءاً في صدرها ، رغم انقضاء ثلاث سنوات ! .. وكان يجري وراء الغنيات المسنات ، وقد هجر ايلودي من اجل سيده ذات تحارب ثلاث مواهبه ! .. وقد التحق - بعد مصادرة المكتب الذي كان يعمل فيه - بالهيئة الادارية لباريس ، وعاد جاميلان يردد : « اذن فهو نبيل ! .. مهاجر ! » . وحرصت على أن تضلله ، وهي مطمئنة الى انه لن يعرف الحقيقة بأكملها اطلاقاً .. وعاد يقول : « وتخلي عنك بتدالة ؟! »

وتكست رأسها ، فضمها الى قلبه قائلاً : « ايتها العزيزة .. انك ضحية الفساد الملكي ، ولسوف ينتقم لك غرامى من ذلك الخسيس . الا ليت السماء تسوقني الى لقائه ! .. لسوف اهدي اليه ! »

وأشاحت عنه بوجهها ، وقد استولى عليها الاسى والابتسام وخيبة الرجاء معا ! .. ووذت لو انه كان اكثر فطنة الى امور الهوى ، واكثر انسياقا للطبيعة ، وأشده جموحا وضراوة فى عواطفه . وبدا لها انه ما غفر لها بمثل هذه السرعة ، الا لانه اوتى خيالا باردا ، ولأن الاعتراف الذى ادلت به اليه لم يوقظ فى نفسه شيئا من الرؤى التى تعذب اصحاب العواطف الملهبة .. ولانه — باختصار — لم ير فى زلتها سوى مسألة خلقية واجتماعية !

ونفضا ، فراحا يجوسان خلال دروب الحديقة الخضراء . وقال لها انه أصبح اكثر تقديرا لها من قبل ، لما عانتها من عذاب . وما كانت « ايلودى » لتسأله اكثر من هذا ، فانها كانت تحبه على علاته ، وكانت تعجب بالعبقريّة الفنية التى كانت تراها تتأجج فيه !

وعند خروجهما من حديقة (لوكسمبورج) ، صادفا جموعا محتشدة فى شارع المسساواة (دى ليجاليتيه) ، وحول مسرح الامة من كل جانب . وما كان هذا بالامر الذى يدعو الى الدهشة ، فقد كان ثمة اضطراب عظيم يسيطر على الاحياء الشديدة الوطنية — منذ بضعة ايام — اذ كان ثمة استنكار للتمرد الذى نشب فى (اورليان) ، وعلى انصار « بريسو » الذين قبل انهم كانوا يتآمرون على تخريب (باريس) وتذبيح الجمهوريين . وكان جاميلان نفسه قد وقع — من مدة وجيزة — التماس الجمعية العامة الذى كان يطالب بطرد الواحد والعشرين (انظر الهامش رقم ٦) .

وكان عليهما — حين اوشكا ان يجتازا القنطرة التى كانت تصل المسرح بالمنزل المجاور — ان يمرا خيالا جمع من المواطنين الذين ارتدوا « الكارمانيول » ، يخطب فيهم — من

أعلى ساحة المسرح - شاب في ثوب عسكري ، وفي جمال الحب كما صورته « براكسيتيل » ، وقد ارتدى قلنسوة من جلد الفهد . وكان هذا الجنسدى الفاتن يتهم « صديق أشتي » بالتهاون ، ويقول : « أنك تنام يامارا بينما يصوغ لنا الحنفساء الأثذل ! » . وما أن صمومت « أيلودي » عينيها نحوه ، حتى قالت في عجة : « هيا يا أيفاريسيت ! » . وزعمت أن السرحام أزعجها ، وأنها كانت تخشى أن يفشي عليها لفرط التدافع .

وافترقا في ميدان الأمة ، بعد أن تبادلوا الأيمان على الحب الأبدى !



في ساعة مبكرة من ذلك الصباح ، كان المواطن « بروتو » قد قدم إلى المواطنة « جاميلان » هدية فاخرة ، تمثلت في ديك سمين . ولم يكن من الحكمة - من جانبه - أن يذكر كيف حصل عليه ، إذ أنه كان قد أخذه من سيدة في سوق المدينة (لاهال) ، كان يعمل كاتباً لها أحياناً . . وكان المعروف أن سيدات (لاهال) يغذين مشاعر أنصار الملكية ، ويراسلن المهاجرين !

وتلقت المواطنة جاميلان الديك بقلب مفعم بالعرفان ، فما عادت مثل هذه النعم ترى في تلك الأيام . . إذ عسرت الاتومات ، وأصبح الناس يخشون المجاعة . . وقيل أن الأرستقراطيين كانوا يتطلعون إلى هذه المجاعة ، وأن الاحتكاريين كانوا يمهدون لها !

ودعى المواطن « بروتو » ليأكل نصيبه من الديك في الغداء ، فجاء ملياً الدعوة ، وأطرى مضيقة لما كان لطبخها من أريج ذى تفوح في المسكن كله . والحق أن الرسم كان يعبق

برائحة المرق الدسم . وقالت السيدة العجوز ترد على اطرائه : « آتك مفرط اللطف ياسيدى . . لقد اعددت - لتهيئة المعدة لتلقى ديكك - حساء من مرق الخضر وجلد الخنزير المفروم وقطعة كبيرة من عظام البقر . فليس افضل من عظمة ذات نخاع ، ليكون للحساء عبر شهى ! »

فأجاب الشيخ بروتو : « انها لفكرة بديعة ايتها المواطنة . وانك لتحسنين صنعا اذا أعدت هذه العظمة الثمينة الى قدر الحساء فى غد ، وبعد غد ، وبقية الاسبوع ، حتى لا يعوزه العير ! . . لقد كانت عرافة (بانزوست) تفعل - فيما مضى - شيئا من هذا القبيل . . كانت تصنع حساء من الكرنب الاخضر ، ومفروم دهن الخنزير الاصفر ، و « سافورادو » قديمة . . فهكذا تسمى العظمة ذات النخاع الكثير والعبير الشذى ، فى بلادها . . التى هى بلادى انا الآخر ! »

وقالت المواطنة جاميلان : « ألم تكن هذه السيدة - التى تتحدث عنها ياسيدى - شحيحة بعض الشيء ، اذ تستخدم العظمة الواحدة امدا طويلا ؟ » . فأجاب بروتو : « لقد كانت ضئيلة الدخل . . كانت فقيرة ، برغم انها عرافة ! »

واقبل ايفاريسست جاميلان فى تلك اللحظة ، وهو شديد التأثير بما سمع من اعترافات . وقد عاهد نفسه على أن يعرف الرجل الذى أغوى « ايلودى » ليثأر منه للجمهورية ولحبه فى آن واجد !

وبعد المجاملات المعتادة ، وصل المواطن بروتو حبل الحديث قائلا : « من النادر ان يمارسون مهنة التنبؤ بالمستقبل ان يثروا ، فان الناس سرعان ما يفطنون الى خدعهم ، ولا تلبث حيلهم ان تجعلهم مكروهين . على انهم

خليقون بأن يقدوا أشسس تعرضا للمقت ، لو انهم كانوا
يكشفون المستقبل حقا . ذلك لأن حياة الانسان تغدو غير
محتملة ، اذا هو عرف ما كتب له ان يصيبه . انه - اذذاك -
يكشف عللا مقبلة ، فيعانيها مقدما ، ولا يعود يهنأ بالنعم
الحاضرة ، التي اطلع على نهايتها . ان الجهل هو الشرط
الذى لاغنى عنه لهناء البشر ، ومن الواجب أن يدرك الناس
أنهم في أغلب الأحيان يفيدون منه . اننا نجعل كل شيء عن
أنفسنا تقريبا . . وكل شيء تماما عن سوانا . ان الجهل هو
الذى يكفل لنا الطمأنينة . . والوهم الكاذب يكفل لناراحة
البال ! »

ووضعت المواطنة جاميلان الحساء على المائدة ، وتلت
صلاتها ، ودعت ابنها وضيفها الى الجلوس . ثم شرعت
تأكل وهى واقفة ، وقد رفضت المكان الذى افسححه لها
المواطن بروتو الى جسواره ، اذ كانت تعرف - كما قالت -
ما يتطلبه حسن السلوك !

الفصل السادس



• الساعة العاشرة صباحا ، وليس من نسمة تحرك الهواء . . . كان ذلك أسخن « يوليو » عُرفه الناس . وفي شارع (اورشليم) الضيق ، اصطف حوالى مائة من المواطنين سلكا القطاع أمام باب الخباز ، تحت اشراف اربعة من الحرس الوطنى الذين راحوا يدخلون غلايتهم ، وهم متكئون على اسلحتهم .

وكان « المؤتمر » الوطنى قد عين الحد الاقصى للأسعار ، فسرعان ما اختفى القمح والدقيق . وبات لزاما على الباريسيين - وقد أصبحوا كبنى اسرائيل فى الصحراء - ان ينهضوا قبيل مطلع النهار ، اذا هم أرادوا ان ياكلوا ؛

ومن ثم وقف كل هؤلاء الناس متلاصقين - رجالا ونساء واطفالا - تحت سماء كأنها الرصاص المصهور ، تبخر الماء العطن في البالوعات ، وتثير روائح العرق والنتن . . وهم يتمللون ، ويتساءلون ، وينظر بعضهم الى بعض بكل العواطف التى يمكن للمخلوقات البشرية ان تستشعرها فيما بينها : من نفور . واشمئزاز ، واهتمام ، ورغبة ، وعدم اكتراث . فقد كانوا يعرفون - بالتجربة القاسية - ان ليس ثمة خير يكفى جميع الناس ، ومن ثم فان الذين وصلوا متأخرين سعوا الى ان ينسبوا بين المتقدمين ، وراح الذين فقدوا أماكنهم فى الصف يشتكون وينفعلون ويطالبون مهتاجين - دون جدوى - بحقوقهم المقتصبة . . واعملت النساء سواعدهن واردافهن - فى غبط محموم - ليحتفظن بأماكنهن أو ليكسبن خيرا منها . فاذا ما اشتد الزحام وأصبح خانقا ، تعالت صيحات : « لا تتدافعوا ! » ، فينفى كل واحد انه ساهم فى الدفع ، قائلا ان سواه كان يدفعه ! ولتفادى هذه الفوضى اليومية ، خطر للجنود المنتدبين من القطاع ان يشدوا الى باب المخبز حبلا يمسكه كل امرئ بدوره . ولكن الايدى كانت تتقارب بسرعة ، ثم تلتقى على الحبل ، وتندمج فى عراق . وما كان ليقدر للبد التى تفلت الحبل ان تعود الى الامساك به . وكان المستاءون - أو الماجنون - يقطعون الحبل ، فلم يكن ثمة بد من العدول عن هذه الطريقة !

وكان من الواقفين فى هذا الصف من يحتنقون ، ومن يخشون ان يموتوا ، ومن يطلقون الميزج والنكات ، ومن يتراشقون بالعبارات البذيئة ، ومن يطلقون بسباب الايستقراطيين والمتحدين ، متهمين اياهم بانهم اصل كل

شر . فاذا مر كلب ، انطلقت النكات تسميه « بيت » .
واحيانا كان يدوى رنين صغرة قوية ، توقعها يد احدى
المواطنات على صدغ أحد الوقحين . . بينما تنتهد احدى
الخادومات الشابات ، فى رفق وانتشاء ، وعيناها نصف
مغمضتين ، وفمها نصف مفتوح ، اذ التحق بها جارها ! .
وعند كل كلمة ، وكل اششارة ، وكل تصرف يوقظ روح
الفكاهة الخليعة التى يتسم بها الفرنسيون المرحون ، كانت
ثلة من الشباب الماجن تنطلق بالنشيد الوطنى ، على الرغم
من احتجاجات شيخ يعقوبى مسن ، راح يستنكر اقحامهم
— فى مجونهم القدر — نشيدا يعبر عن الايمان الجمهـورى
بمستقبل مفعم بالعدالة والرفاهية !

وأقبل احد لاصقى الاعلانات — وسلمه تحت ابطه —
فألصق على الجدار المواجه للمخبز ، بيانا من الجمعية العامة
بتحديد مقدار ما يباع من اللحم لكل فرد . . ووقف بعض
المارة ليقروا الورقة — وهى بعد لزجة مبتلة . . وصاحت
بائعة كرنب — كانت تسير حاملة سلتها على ظهرها — بصوت
اجش متقطع : « لقد راحت العجول الطيبة . . فلنقنع
بشواء المصارين ! »

وارتفعت من احدى البالوعات — على حين غرة — رائحة
شديدة القبح ، حتى ان كثيرين اصابوا بالقيان . وساءت
حال امسرة فأغمى عليها ، وارتمت على اثنين من الحرس
الوطنى فحملوها الى مضخة ماء كانت على بضع خطوات . .
وسدت الاثوف ، والبيعت زمجرة متذمرة ، وتبدلت عبارات
مليئة بالضيق والسيخط . وتسائل البعض عما اذا كانت
تلك رمة حيوان مدفون هياك ، او تساءل عن سوء نية . .
او لعلاها فى الغالب جيفة احد الذين ذبحوا فى مذابح سبتمبر

— نبيلًا كان أو من رجال الدين — وقد نسيت في سرداب مجاور .

— وهل كانوا يوضعون هناك ؟

— لقد كانوا يوضعون في كل مكان !

— أنه ولا بد واحد ممن كانوا في « شاتيليه » (٣٧) . فقد رأيت في اليوم الثاني من الشهر ثلاثمائة من جثثهم مكدسة على جسر (اوشانج) .

وكان الباريسيون يخشون ان ينتقم اولئك لانفسهم — في موتهم — بأن يسمموهم بعقنهم .



وانضم « ايفاريسست جاميلان » الى الصف ، فقد كان راغبًا في ان يجنب امه العجز متاعب الانتظار الطويل . ورافقه جاره — المواظن بروتو — وهو هادئ النفس ، باسم الثغر ، وديوان أشعار « لوكريس » في جيب « ردينجوتيه » العتيق . ووصف الكهل الطيب هذا المنظر — في حذقة — فشبهه بلوحة مليئة بالاشجار ، جذيرة بريشة رسام حديث يحذو حذو « تانييه » .

وقال : « ان هؤلاء الحمالين ، وهاته الثرثرات ، أبهج منظرا من الاغريق والرومان الذين يعتز بهم رسامونا اليوم . اما انا ، فقد كنت اوتر دائما الطريقة الهولندية ! » . اما الذى لم يذكره اطلاقا — عن حكمة وكياسة — فهو انه كان يمتلك قاعة مليئة باللوحات الهولندية ، لم تكن تعادلها — في

(٣٧) الحصن الأصفر من حصنين قديمين كانا يقومان علي ضفة « السين » في باريس . وكان هذا الحصن يستخدم كسجن .

عدد الصور وقيمتها الفنية - سوى خزانة المسسيو دي شوازيل (٣٨) *

ورد عليه الرسام قائلا : « لا جمال الا في القديم وما يوحى به ، ولكنى اوافقك على ان الاشجار - في لوحات تانييه ، وستين ، واوستاد - تفضل في القيمة الزخارف المأخوذة عن القرون الوسطى في لوحات واتو ، وبوشيه ، وفان لو . . . هنا تجد البشرية مشوهة ، ولكنها ابدا غير مهينة ولا مزدرة كما في لوحات بودوان أو فراجونار » .

ومر مناد كان يصيح : « نشرة المحكمة الثورية ! . . قائمة اسماء الذين قضى عليهم بالاعدام ! »

فقال جاميلان : « ان محكمة ثورية واحدة لا تكفى . يجب أن تقام في كل مدينة واحدة . . ماذا أقول ؟ . . بل في كل مديرية ، وفي كل اقليم . يجب ان ينصب الآباء في الاسرات - والمواطنون أجمعون - أنفسهم قضاة . فعندما تكون الامة تحت مدافع الاعداء ، وتحت خناجر الخونة ، يصبح التساهل جريمة منكرة . . أجل ! . . ان ليون ومارسيليا وبوردو قد شقت عصا الطاعة ، وكورسيكا ثائرة ، وفانديه في نار ، وماينس والفالنسيين سقطت تحت سلطان المتحالفين . . والخيانة في الريف ، وفي المدن ، وفي المعسكرات . . الخيانة تتربع على مقاعد المؤتمر الوطنى . . الخيانة تجلس في مجالس الحرب ، وفي مجالس قادتنا ، وفي يدها الورقة الكفيلة بأن تقلب الميزان ! . . الا ليت المقصلة تنقذ الوطن ! »

فرد الشيخ بروتو : « مامن اعتراض جوهرى أملك ابداءه »

(٣٨) الدوق اتيين فرانسوا دي شوازيل . كان وزيرا للخارجية في عهد لويس الخامس عشر .

ضد المقصلة . أن الطبيعة - وهي مولاتى الوحيدة، ومعلمتى الوحيدة - لم تلقننى على أى وجه، أن حياة الانسان ذات قيمة . بل انها علمتنى على النقيض - وبكل الطرق - أن ليس لحياة الانسان قيمة البتة . ويبدو أن النهاية الوحيدة للكائنات ، هي أن تغدو غذاء لكائنات أخرى مكتوب عليها أن تسير الى النهاية عينها ! . . ان القتل هو قانون الطبيعة ، ومن ثم فإن الحكم بالموت امر مشروع ، على شريطة ان لا يمارس باسم الفضيلة ولا باسم العدالة ، وانما بحكم الضرورة ، او الرغبة فى الحصول على كسب ما . . ومع كل ، فلا بد اننى اوتيت فطرة شاذة ، اذ اننى اعاف رؤية لون الدم ، وهو عيب لم تفلح بعد كل فلسفتى فى اصلاحه ! »

فقال ايفاريست : « ان الجمهوريين قوم ذوو انسانية ورشاد . وليس سوى المستبدون من يتشبهون بأن عقوبة الاعدام امتياز ضرورى للسلطان . اما وقد غدا الشعب هو السلطان ، فانه لن يلبث ان يلغىها يوما ما . لقد كافحها روبيبير ومعه كافة الوطنيين ، ولن يطول تأخر صدور القانون الذى يلغىها . . بيد ان من الواجب ان لا ينفذ هذا الالغاء ، الا بعد ان يهلك آخر عدو للجمهورية ، تحت سيف القانون ! »

وكان قد تجمع وراء جاميلان وبروتو - فى تلك الاثناء - كثير من المتأخرين ، بينهم عدد من نسوة القطاع ، ومنهن حسناء بارعة فى حبك الصوف (التريكو) ، وقد احاطت رأسها بمنديل ، وانتعلت نعلين خشبيين (قبقابا) ، وحملت سيفاً فى قراب . . كما كانت بينهن فتاة جميلة ، شقراء ، شعناء ، بدا وشاحها شديد التجعد . . وام شابة ، هزيلة ، صفراء اللون ، القمت ثديها طفلاً أعرج . فأخذ الطفل

يبكى ، اذ لم يجد في الشدى لبنا ، وليسكن صرخاته كانت
واهنة ، والعبرات تخنق صوته .. كان طفلا يثير الرحمة
في القلوب ، وقد شحب لونه وامتعق ، واحتقنت عيناه ..
وكانت امه تتأمله في اسى ملثاع .

وقال جاميلان ، وهو يلتفت الى الرضيع التعس - الذى
كان ينتحب خلفه - وسبط تراحم اولئك الذين وفدوا
متأخرين : « ما اصفره ! »

- ان عمره ستة اشهر * هذا الحبيب المسكين ! .. ابوه
في الجيش ، فهو احد الذين ردوا النمساويين عن * (كونديه) ،
ويدعى دومونتى (ميشيل) . وهو عامل نسيج ، بحكم
حرفته . لقد سجل اسمه متطوعا ، في سرادق كان قد اقيم
امام دار البلدية . لقد اراد الحبيب المسكين ان يذود عن
وطنه ، وان يتفرج على البلاد .. وكتب الى ، يدعونى الى
التنزع بالصبر . ولكن ، كيف ترانى اغذى بول المسكين -
فان الطفل يسمى : بول - وانا لا استطيع ان اغذى نفسى ؟
وهتفت الجميلة الشقراء : « آه ! .. لا يزال امامنا ساعة ،
ولا بد من ان نكرر هذا الاجراء امام باب البدال في المساء ..
ان المرء ليتعرض للموت في سبيل الحصول على ثلاث بيضات
وقطعة من الزبد ! » . فتنهدت المواطنة دومونتى قائلة :
« الزبد ؟ ! .. ها قد انقضت ثلاثة اشهر دون ان اراه ! »

واخذ فريق النساء ينعى ندرة القوت وغلاء اثمانه ،
ويهيل السباب على المهاجرين ، وينذر للمقصلة مندوبى
القطاع الذين كانوا يعطون النسوة الخليعات دجاجا وارغفة
- من التى تزن اربع ليبرات (٣٩) - في مقابل خدمات

(٣٩) الليبرة وحدة قديمة للوزن ، يطلق اسمها خطأ على ما يعادل
نصف الكيلو جرام .

مخجلة !.. وانتشرت قصص تشر الفزع عن قطعان من الماشية
أفرقت في (السين) ، وأكياس من الدقيق أفرغت في
البالوعات ، وخبز القى في المراحيز .. لقد كان الملبكيون
والرولانديون والهريسوتيون هم الذين يعملون على أجاعة
أهل باريس ، ويسعون الى اهلاكهم !



وفجأة ، اخذت الجميلة الشقراء - ذات الوشاح المجدد -
تصرخ ، كما لو كانت النار قد علقت بثوبها ، الذي راحت
تنفضه بعنف وتقلب جيوبه ، معلنة ان كيس نقودها قد سرق
.. وعلى ضجيج هذه السرقة ، سرى استنكار عظيم في
أولئك القوم المتواضعين ، الذين اقتحموا قصور صاحبة
(سان جيرمان) ، وغزوا (التويلرى) ، دون ان يستولوا
على شيء .. أولئك الصناع وربات البيوت الذين أحرقوا
قصر (فرساي) بنفوس مطمئنة ، ولكنهم كانوا يخشون
العار اذا هم سرقوا ديبوسا . واخذ الفتية الماجنون ينشئون
بعض النكات البذيئة على نكبة الفتاة الصغيرة الحسناء ،
ولكنهم سرعان ما خرسوا امام زجرات القوم . ونادى البعض
اذاك بشنق السارق على عمود المصباح . وانهمك القوم
في تفتيش صاحب ومتعصب . وأشارت الفتاة الماهرة في
حبك الصوف بأصبعها نحو كهل اشتبه في انه كان راهبا
خلع عنه مسوحه ، واقسمت ان هذا «الكبوشي» (٤٠) هو
الذى ارتكب السرقة ، فسرعان ما اقتنع الحشد ، ونادى
بموته !

وكان الكهل الذى قضى عليه بقصاص الجمهور - بهذا

(٤٠) الزهبان «الكبوشيون» اتباع القديس فرانسوا . وكانوا يتكفلون
باطفاء الحرائق في باريس ، قبل الثورة .

الحماس - يقف امام المواطن « بروتو » في تواضع جم . .
 وكان له - والحق يقال - كل سمات رجل الدين السابق . .
 كان مظهره وقورا جليلا : لم ينل منه الاضطراب الذي الم
 بالرجل المسكين من جراء هياج الحشد وذكرى ايام شهر
 سبتمبر التي كانت بعد حية في النفوس . على ان الخوف
 الذي ارتسم على وجهه دعم شك القوم الذين اعتقدوا - في
 قرارات نفوسهم - ان المذنبين وحدهم هم الذين يخافون
 احكام الراى العام ، وكأتما لم يكن هذا الاندفاع المتهور كافيا
 لان يلقى اللعن في قلوب اكثر الناس براءة .

وكان « بروتو » قد جعل لنفسه ديننا ان لا يعترض
 الشعور العام ، لا سيما حين يتجلى هذا الشعور أرعن
 ضاريا « لأن صوت الشعب يكون اذذاك من صوت الله » ،
 كما كان يقول . ولكن بروتو لم يرع هذا الدين ، فأعلن
 ان هذا الرجل - كبوشيا كان او غير كبوشى - لم يكن
 يستطيع ان يسرق المواطنة ، لانه لم يقربها لحظة واحدة .
 ورأى القوم ان الذى كان يدافع عن السارق لابد ان يكون
 شريكا له ، فانقلبوا يتحدثون عن وجوب معاملة الشريرين
 بالشدة ، واذ تكفل جاميلان بضمان بروتو ، نادى اكثر القوم
 حكمة بارساله مع الآخرين الى الجمعية العامة للقطاع . ولكن
 الفتاة الجميلة صرخت - فجأة - في ابتهاج ، معلنة انها
 وجدت كيسها . وسرعان ما انهالت عليها السخريات
 والوعيد بأن تساط علانية ، كما لو انها كانت راهبة !

وقال رجل الدين لبروتو : « اشكر لك انبرائك للدفاع عنى
 يا سيدى . . ليست لاسمى قيمة تذكر ، ولكنى أرى من
 واجبى ان اذكره لك . . فأنا ادعى «لوى دى لونجمار» . وأنا
 قس حقيبا ، ولكنى لسيت «كبوشيا» . كما قالت هيلده

النسوة - وانما أنا قس نظامى من طائفة البرنابيين ، التى قدمت للكنيسة زرافات من الاطباء والقديسين . ولسنا نصيب الحقيقة تماما اذا أرجعنا منشأ هذه الطائفة الى القديس شارل بوروميه ، بل يجب أن نعتبر القديس بولس هو منشأها الحقيقى .. ومن ثم فانها تثبت شعاره على لوائها وشارات الشرف الخاصة بها . وقد اضطررت الى أن أهجر ديرى - اذ أصبح مقرا للجنة قطاع (بون نيف) - وان ارتدى زيا مدنيا . فقال بروتو ، وهو يتأمل العبيساء الطويلة الفضفاضة التى كان السيد دى لونجمار يرتديها : « ان ثوبك يا أبى ، يشهد بما فيه الكفاية ، على انك لم تنبذ مهنتك . فان الذى يراه يعتقد انك لم تهجر مذهبك .. بل يؤمن بانك جدته . وانك لتعرض نفسك بسذاجة - تحت هذا المظهر المتكشف - لاذى قوم ملحدين ! » . فأجاب رجل الدين : « ولكنى لا أستطيع كذلك ان أرتدى حلة زرقاء كالراقص ! »

- ان ما أقوله عن ثوبك يا أبى ، ليس غير تحية لشخصيتك ، وتحذير لك ضد الاخطار التى تهددك !

- على العكس يا سيدى ، خليك بك أن تشجعنى على أن أجهر بعقيدتى . ذلك لأننى لا أميل كثيرا الى التخوف من الخطر . لقد هجرت زيبى يا سيدى ، وهذا نوع من العقوق .. وكنت أوتر - على الاقل - أن لا أهجر البيت الذى ارتضاه الله لى طيلة هذه السنين الطويلة ، لأنعم فيه بحياة آمنة وادعة . لقد ظفرت باذن بالبقاء هنسالك ، ولزمت صومعتى ، الى أن حولوا الكنيسة والدير الى شبه دار صغيرة للبلدية ، اسموها « الجمعية العامة للقطاع » . ولقد رأيت يا سيدى .. شهدت بعينى تحطيم رموز وشارات الحقيقة القديسية .. شهدت اسم بولس الرسول وقد جلي

محله قلنسوة من قلنسوات المسجونين المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . . بل اننى ساهمت - فى بعض مرات - فى جلسات الجمعية العامة للقطاع ، فسمعت أخطاء مذهلة تعرض . وقصارى القول اننى هجرت هذا المأوى المدنس ، واصبحت أعيش على المائة البيستول (٤١) - التى قررتها لى الجمعية العامة - فى حظيرة استولوا على خيلها وأربلوا لها لخدمة الجيوش . هناك أقيم القداس بحضور بعض المؤمنين الذين يفدون ليشهدوا بخلود كنيسة يسوع المسيح ! »

فرد عليه الآخر : « ابا انا يا أبى فأدعى - اذا بثت أن تعرف - بروتو ، وقد كنت من قبل جاييا للضرائب » . فقال الاب لونجمار : « لقد تعلمت من المثال الذى ضربه القديس ماتيوس - يا سيدى - أن من الجائر أن يسمع المرء حديث الخير من موظف حكومى ! »

- انك لصالح ، بالغ اللطف ، يا أبى !
فقال جاميلان : « الا أعجب - أيها المواطن بروتو - بهذا الشعب الطيب ، الذى يشتهى العدالة أكثر مما يشتهى الخبز . فقد كان كل امرئ هنا على استعداد أن يترك مكانه لشنق السارق . . ان هؤلاء الرجال ، وهؤلاء النساء صارمون فى أمانتهم برغم فقرهم ، وبرغم أنهم يرزحون تحت كل هذا الحرمان . فهم لا يستطيعون أن يطبقوا عملا غير شريف ! »

فأجابه بروتو : « من الواجب الاعتراف بأن هؤلاء الناس فى حميتهم الشديدة لشنق السارق ، قد شنوا حملة سيئة على هذا القس الطيب ، وعلى من دافع عنه ، وعلى من دافع عن المدافع عنه ! . . ان ما أوتوه من فتن بمتاعهم ، ومن خب

(٤١) عملة ذهبية كانت شائعة فى فرنسا ، فى الماضى .

اتانى لصاحبتهم ، هما اللذان دفعاهم الى ذلك ، فان اللص الذى يسطو على احدثهم ، يهسلد اليساقين ، ومن ثم فهم يحافظون على انفسهم بمعاقبتة . . ومع ذلك ، فمن الجائز ان غالبية هؤلاء الصناع وربات البيوت افاضل يحترمون متاع الغير . . وان هذه المشاعر قد غرسها آباؤهم وأمهاتهم فى نفوسهم منذ الصغر ، اذ كانوا يجلدونهم جلدا مبرحا ، حتى اضطروهم الى انتهاج الفضيلة قسرا ! »

ولم يخف جاميلان عن الشيخ بروتو ان مثل هذه اللهجة لا تبدو جديرة بفيلسوف . وقال : « ان الفضيلة خلة طبيعية فى الانسان ، اودع الله بذرتهم فى قلوب المخلوقات » . . وكان الشيخ بروتو زنديقا ، يستمد من زندقته لذة فياضة ، فقال : « ارى ايها المواطن جاميلان انك وان كنت ثوريا فيما يتعلق بالارض ، الا انك - فيما يتعلق بالسماء - محافظ ، بل رجعى . . وان روبسبير ومارا ليفوقانك فى ذلك . وشد ما أعجب من أن الفرنسيين لم يعسودوا يطبقون ملكا فانيا ، يرتضون احتمال ملك غير فان ، هو أكثر ظلما وطغيانا . . والا ، فما (الباستيل) او غرفة التعذيب بالقياس الى الجحيم ؟ . . ان الانسانية ترسم آلهتها على غرار طغاتها . . واذا بكم تحرصون على الصورة ، وآتم الذين تنبذون الاصل ! »

فصاح جاميلان : « ويحك يا مواطن ! . . ألا تخجل من ازجاء كلام كهذا ؟ . . كيف تخطط الآراء اللاهوتية المعتمدة - المتولدة عن الجهل والخوف - بخالق الطبيعة ؟ . . ان الايمان برّب طيب أمر لا غنى عنه للاخلاق . فالكائن الاعلى هو منبع الفضائل جميعا ، ولن يكون المرء جمهوريا اذا هو لم يؤمن بالله . لقد عرف روبسبير ذلك ، فرفع من قاعة

اليعاقبة تمثال الفيلسوف « هلفيتيوس » ، الذى يحمل وزر
خنوع الفرنسيين للعبودية ، اذ لقتهم الكفر بالله . . وما
دامت الجمهورية قد أنشأت مذهب الايمان بالعقل ، فانى
آمل - ايها المواطن بروتو - ان لا تأبى اعتناق عقيدة حكيمة
كهذه ، على الاقل ! »

ورد بروتو قائلا : « اننى أحب العقل ، ولكنى لست
متطرفا فى ذلك ، ان العقل يرشدنا ويضىء لنا السبيل . اما
اذا جعلتم منه ربا قدسيا ، فانه سيعميكم ويضللكم ويغريكم
بالاجرام ! »

وواصل « بروتو » الجدل وقدمه فى ماء البالوعة الاسن،
كما اعتاد أن يفعل - من قبل - وهو فى أحد المقاعد المريحة
المذهبة ، فى دار البارون « دولباخ » الذى أفاد - على حد
تعبيره - الفلسفة الطبيعية فوائد جوهرية . . فقال : « ان
جان جاك روسو ، الذى أبدى بعض المواهب - لا سيما فى
الموسيقى - كان دعيا زعم انه استمد مبادئه الخلقية من
الطبيعة ، وهو قد استمدّها - فى الواقع - من مبادئ
كالفن . ان الطبيعة تعلمنا أن نفرس بعضنا بعضا ،
وتقدم لنا النماذج لكل الجرائم ولكافة الرذائل والشرور ،
التى يصلحها الوضع الاجتماعى او يتستر عليها . ان من
الواجب حب الفضيلة ، ولكن من الخير معرفة انها حيلة
ساذجة ابتكرها البشر ليعيشوا معا فى وئام . وليس هذا
الذى ندعوه بالقانون الخلقى سوى محاولة يائسة منسأة
جميعا ، ضد نظام الكون الذى يتمثل فى الصراع ، والتدبيح،
والصدام الاعمى بين القوى المتصادمة . ان الكون يهدم نفسه
بنفسه ، وكلما أمهنت تفكيرا فى ذلك ، ازددت اقتناعا بان

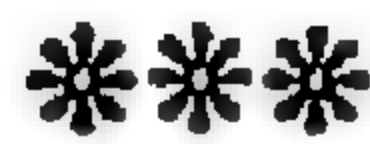
الكون مجنون! .. ان اللاهوتيين والفلاسفة - الذين يجعلون الله خالق الطبيعة ومهندس الكون - اظهروه لنا شريرا ، ومناقضا للعقل .. وهم يقولون انه طيب لانهم يخافونه ، ولكنهم مسوقون الى ان يعترفوا بأنه يسلك مسلكا ظالما .. انهم ينسبون اليه خبثا نادر الوجود ، حتى لدى الانسان ، وهم يتوسلون بهذا الى ان يجعلوه معبودا على الارض . ذلك لأن جنسنا النعس لا يعتنق عقيدة تمت الى ارباب عادلين رحيمين ، وليس فيها ما يدعو الى الخوف . انهم لا يرون مصلحة في عرفان لا يجدى .. فبدون المظهر والجحيم ، لا يكون الاله الطيب غير مولى مسكين ! »

فقال الاب لونجمار : « لاتكلم قط عن الطبيعة يا سيدى ، فأنت لا تدري كنهها ! »

- لعمر الله يا أبت ، انى لأعرفها بقدر ما تعرفها انت !
- ليس بوسعك أن تعرفها ، مادمت بلا دين ، فان الدين وحده هو الذى يعرفنا بماهية الطبيعة ، ومواطن نفعها ، وكيف تطرق اليها النقص . وفيما عدا ذلك لا تنتظر منى ردا ، فان الله لم يمنحنى من حرارة اللهجة ، ولا من قوة الذكاء ، ما يكفى لتفنيد اغلاطك . وأخشى أننى لن أزودك - بعجزى هذا - الا بفرص للتجديف ، وأسباب للجحود .. ولما كنت أحس رغبة جامحة لخدمتك ، فأننى أخشى أن لا أجنى ثمرة لهذا البر المستتر سوى ...

وقطع عليه الحديث هرج عظيم ، بدأ عند رأس الصف ، معلنا جميع الجوعى الواقفين أن المخبز قد فتح ابوابه . وبدأ الصف يتحرك الى الأمام ، ولكن فى بطء شديد .. وكان احد رجال الحرس الوطنى - فى زيه الرسمى - يدخل المشتريين واحدا بعد آخر . وكان الخباز وزوجته وابنه

يتلقون العون في بيع الخبز من اثنين من مندوبي الجمعية العامة ، وقد لف كل منهما ذراعه اليسرى بشريط ذي ثلاثة ألوان (٤٢) . . وكانا يهتمان بالتأكد من أن المشترين ينتمون الى القطاع ، وأن كل واحد لا يتلقى سوى النصيب الكافي لطعام من يعولهم .



كان المواطن « بروتو » يتخذ من السعى وراء السرور غايته الوحيدة في الحياة . . كان يرى أن العقل والحواس هي صاحبة الحكم الوحيدة في غياب الله ، ولم يستطع أن يهتدى الى سواها . فلما وجد في آراء الرسام شيئاً من التطرف الذي يجاوز المعقول ، وفي آراء رجل الدين شيئاً من البساطة أكثر مما يروق له تماماً ، أثر هذا الرجل الماقل أن يطبق مذهبه على مسئلة في تلك الظروف الراهنة ، ويدخل شيئاً من التسرية على نفسه في هذا الانتظار الطويل ، فأخرج من جيب سترته «الردينجوت» - التي كانت في لون البراغيث - اشعار «لوكريس» التي ظلت أشهى متعة له ، ومبعث الرضى الحقيقي لديه . وكان الغلاف الجلدى الاحمر قد تجعد وتثنى لكثرة الاستعمال . وقد كان المواطن « بروتو » من الحكمة بحيث محاً عن الغلاف شعار أسرته ، الذي كان مؤلفاً من رسم بالذهب لثلاث جزر صغيرة اشتراها أبوه في مقابل مبالغ له كانت في حكم الضائعة .

وفتح الكتاب عند جزء روى فيه الشاعر الفيلسوف -

(٤٢) كانت الألوان الثلاثة - الاحمر والابيض والازرق - هي شجيرات الثورة الفرنسية .

الذى كان يبقى ابراء الناس من متاعب الحب التى لا طائل منها - كيف فاجأ امرأة بين اذرع خادوماتها ، فى حال تؤذى شعور اى عاشق . وراح المواطن «بروتو» يقرأ هذه الأبيات ، دون أن يشغل بذلك عن القاء النظرات على عنق جارتة الجميلة المستتر وراء خصلات ذهبية ، ولا عن أن يتنسم - فى نشوة - عبر بشرتها البضبة المتسخة ! .. والشاعر «لوكريس» لم يؤت سوى ناحية واحدة من نواحي الحكمة ، أما تلميذه «بروتو» فقد أوتى نواحي كثيرة ! .. ولقد راح يقرأ ، ويتخذ خطوتين الى الامام فى كل ربع ساعة .. وكان صخب الثرثارات - عن غلاء الخبز والسكر والبن والشمع والصابون - يطرق عبثا اذنيه اللتين كانتا تطربان للنظم الموزون ذى القوافى العديدة ، التى صيغ فيها الشعر اللاتينى . وعلى هذا النحو ، بلغ عتبة المخبز وهو ناعم البال . وفوق رأسه ، لمح «ايفاريسست جاميلان» - الذى كان خلفه - حزمة من القمح الذهبى ، ثبتت الى حديد الكوة التى تعلو الباب .

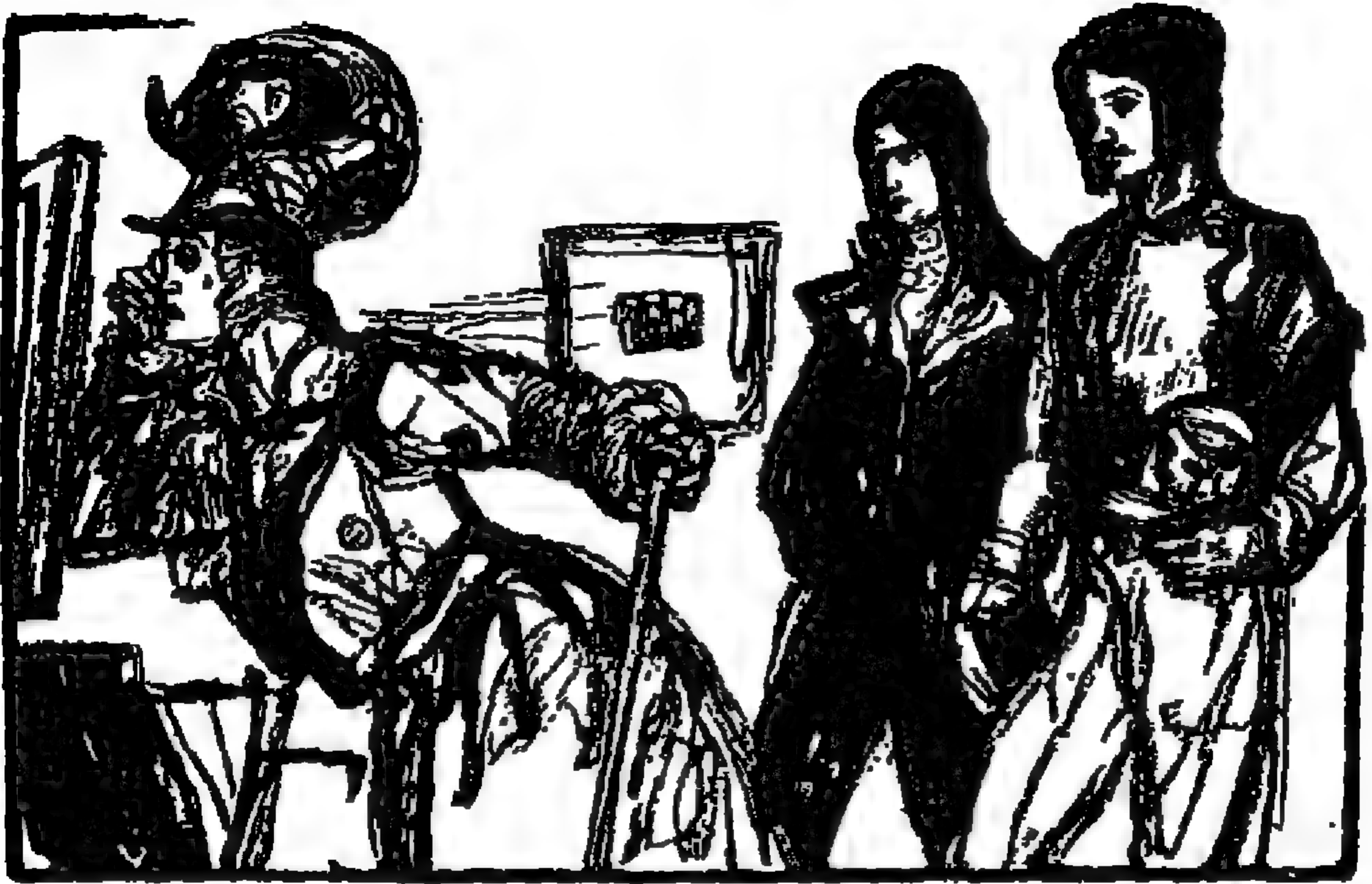
ودخل الحانوت بدوره ، فاذا السلال والصناديق قد خوت ، ودفع اليه الخباز بالقطعة الوحيدة من الخبز التى تبقت ، والتى كانت تزن ليبرتين . ودفع ايفاريسست الثمن ، ثم أغلق الخباز الباب فى اثره ، خشية أن يغير القوم الصاخبون على المخبز . على أنها لم يكن ثمرة ما يدعو الى الخوف ، فان هؤلاء الفقراء - الذين تعلموا الطاعة على ايدى طفاتهم السابقين ، وعلى ايدى محسريهم الزاهنين - داروا على اعقابهم ، وجروا اقدامهم وقد تكيسوا رؤوسهم !

وما أن بلغ «جاميلان» ناصية الشارع ، حتى أبصر المواطنة «دومونتي» جالسة على حجر ، ورضيعة بين

ذراعيها . وكانت جامدة ، وقد غاض لونها ، ونضب دمعها ، وزاغ بصرها . . أما الطفل فقد راح يمتص أصبعه في نهم . ووقف جاميلان لحظة أمامها حائر مرتبكا ، فلم يبد عليها أنها رأتة . وغمغم ببضع كلمات ، ثم أخرج مطواته من جيبه - وكانت مطواة ذات نصل معقوف ومقبض من العظم - فشطر خبزة نصفين ، وضع أحدهما على ركبتى الأم الشابة ، التى تطلعت فى دهشة . . ولكنه كان قد انعطف وراء ناصية الشارع !

واذ دخل داره ، ألقى أمه جالسة الى النافذة ، ترفو الجوارب . فوضع بقية الخبز فى يدها ، وقال بمرح : « ألا اغفرى لى يا أمى الطيبة ، فقد أضناتى الوقوف طيلة هذا الوقت ، وارهقنى الحر ، فاذا بى آكل نصف نصيبنا من الخبز ، لقمة إثر لقمة ، أثناء سبرى فى الشارع ، وفى دخول البيت . فلم يكذبى سوى نصيبك أنت ! » وتظاهر بأنه ينفذ فتات الخبز عن سترته !

الفصل السابع



• قالت المواطنة الارملة جاميلان ، مرددة قولا جـد قديم : « اننا لطول اكل الكستناء ، سنصبح . . كستناء! » كانت في ذلك اليوم - الثالث عشر من يولية - قد تناولت وابنها غداء من حساء الكستناء . وفيما هما يأتيسان على هذه الوجبة التقشفية ، دفعت الباب سيدة ، فملأت المرسم فجأة ببهرجها وشذى عطورها . وعرف « ايفاريسـت » لتوه انها المواطنة « روشمور » . وظن انها اخطأت الباب ، وانها كانت تنشد المواطن « بروتوا » - صديقها القديم - فخطر له أن يرشدها الى المخزن الذي كان يقيم فيه هذا ، أو أن يناديه ليوفر على المرأة الانيقة مشقة سلم كسـلم الطاحون . غير أنه بدا - من اول الامر - أن مهمتها

كانت لدى ((ايفاريسست جاميلان)) ذاته . فقد أعربت عن سعادتها لمقابلته ، ولاستطاعتها ان تؤدي له خدمة ما . ولم يكن كل منهما غريبا عن الآخر تماما ، اذ كانا قد تقابلا عدة مرات في مرسوم «دافيد» ، وفي احدى جلسات الجمعية العامة ، وفي منتدى اليعاقبة ، وفي مطعم «فينوا» . . وقد استرعى انتباه المواطنة الى «ايفاريسست» جماله ، وشبابه، ومظهره المثير للاهتمام .

وكانت المواطنة «روشمور» ترتدي قبعة ذات شريط التف بشكل حلزوني ، وذات ريش ، وكأنها قبعة رسمية كندوب ديبلوماسي . . كما كانت مثقلة بالمساحيق ، مخضبة، مخططة ، معطرة ، وما زال لحمها يبدو نضرا تحت هذه الألوان المستعارة . . كانت هذه الزينة الصارخة المصطنعة التي شاعت اذ ذاك - تنم عن اللهفة التي تولدت النساء للاستمتاع بالحياة - في تلك الايام - قبل ان تدهمهن الايام المقبلة غير المؤكدة الظروف . . وكان للجزء الاعلى من ثوب المواطنة قلابتان عريضتان ، وحواف واسعة ، مرصعة بأزرار فولاذية كبيرة . . وكان الثوب بلون الدم ، ولا يملك أحد أن يميز ما اذا كان ينم عن طابع ارسقراطى او عن طابع ثورى . . وما اذا كان لونه يرمز الى دماء الضحايا ، او الى شعار الجلاد . . وكان يرفقها شاب عسكرى ، من فرقة الحرس .

واخذت تطوف بالمرسم ، وفي يدها عصا طويلة من الصدف ، وقد بدت فارعة ، جميلة ، عريضة المنكبين ، نمتلئة الصدر . واخذت تفحص لوحات الرسام وهى تقرب من عينيها الرماديتين ، منظارها الذهبى ذا العدستين . . ضاحكة ، متهلة ، وقد استخفها الاعجاب بجمال الفنان ،

وراحت تطرني لتتلقى بدورها الاطراء .. وتسببنا :
 ((ما هذه اللوحة الرفيعة ، المؤثرة ، التي تمثل امرأة رقيقة
 المشاعر ، وجديلة ، بالقرب من شخص مريض ؟)) .
 فأجاب جاميلان بأنها كانت تمثل «أوريست» حين أيقظته
 أخته ، وأنها جديرة بأن تكون أقل لوحاته رداءة ، اذا قدر
 له ان يتمها .. وأضاف قائلا :

— ان الموضوع مأخوذ عن قصة «أوريست» التي وضعها
 «يوريبيد» . فلقد قرأت — في ترجمة قديمة لهذه
 المأساة — منظرا اخذ بمجامع قلبي اعجابا .. ذلك هو
 المنظر الذي ترفع فيه «اليكترا» أخاها الشاب عن سرير
 أوجاعه ، وتمسح الزبد الذي طفع من فمه ، وتقصى عن
 عينيه الشعر الذي كان يحجب عنهما النور ، وتتوسل الى
 أخيها الحبيب ان يصفى الى ما كانت توشك ان تقوله له
 في هدوء انفعالاته المحتاجة .. وكنت كلما قرأت هذه
 الترجمة ، مرارا وتكرارا ، أحس غشاوة تحجب عني الصور
 الاغريقية ، دون ان أميلك تبديدها .. وخيل الى ان الأصل
 ولا بد أكثر إثارة للنفس ، وأنه يجري بأسلوب أخسر .
 وشعرت برغبة ملحاجة في ان أولف فكرة دقيقة لنفسى ،
 فرجوت السيد «جايل» الذي كان يلقي دروسا في اللغة
 اليونانية ، في «الكوليج دي فرانس» — وكان ذلك في
 سنة ١٧٩١ — ان يشرح لى هذا المنظر كلمة بكلمة ، فشرحه
 لى حسب طلبى . واذا ذاك تبينت ان القدامى اكثر بساطة
 وألفه مما نتصور .. فهنا قالت اليكترا لأوريست : «ياأخي
 العزيز ، ما أشد ما سببه لى نعاسك من فرح ! أفتريد ان
 أعينك على النهوض ؟ » .. وأجاب أوريست : «أجل ،
 صاعدينى ، وخذينى بين ذراعيك ، وامسحى هذه البقية

من الزبد المتصقة حول فمي وعيني . اسندى صدرى الى
صدرك واقصى عن وجهى الشعر الملبس ، اذ انه يحجب
عيني . . . » . وملا نفسى هذا الشعر الفتى الحى ، وهذه
التعبيرات الساذجة القوية ، فرسمت اللوحة التى ترينها
يا مواطنة !

ولقد اعتاد الرسام أن يوجز فى الحديث عن لوحاته ،
ولكنه لم يقتضب فى حديثه عن هذه اللوحة بالذات . وشجعت
أشارة أبدتها له المواطنة روشمور ، وهى ترفع منظارها ،
فاستطرد يقول : « لقد أوضح هنيكان فورات «أوريست»
فى براعة كبيرة ، ولكن أوريست يهز قلوبنا
فى أسوأ أكثر مما يهزها فى هياجه . أى حظ كان
حظه ! . . . فانه بدافع من شفقة البنوة ، ومن اطاعة لأوامر
قدسية ، ارتكب هذا المجرم الذى كان الآلهة خليقين بأن
يعطوه من وزره ، ولكن البشر لم يفتفروه له قط . ولكى ينتقم
للعادلة المهدورة ، جحد الطبيعة ، وخرج عن أنسانيته ،
ومزق أحشاءه بيديه . ولكنه ظل أبيا تحت أثقال عمله
الفظيع ، والصالح كذلك . . وهذا ما أردت أن أبينه فى هذه
اللوحة ، اذ جمعت بين الأخ والأخت ! »

واقترب من اللوحة ، وتأملها فى رضى ، ثم قال : « ان بعض
أجزاء منها قد قاربت الأكمال . . مثل رأس أوريست
وذراعه » .

— أنها لوحة رائعة . . وأن أوريست ليشبها أيها المواطن
جاميلان !

فقال الرسام بابتسامة رزينة ! « أترين ذلك ؟ »
وتقبلت المقعد الذى قدمه اليها جاميلان ، بينما وقف
الضابط الشاب الى جوارها ، ويده على مسند المقعد الذى

جلست عليه . وهو امر أبدي مدى ما فعلته « الثورة »
فما من رجل كان يمس في العهد الماضي مقعدا جلست فيه
امراة ، ولو بأصبعه ، بحكم ما كان ينشأ عليه من قيود -
شديدة أحيانا - تحف بأداب السلوك ، وتجعله يقدر ان
التزام التحفظ في الأماكن العامة أمر ذو قيمة فذة لاي سر
يؤدي إهماله الى فقدان الاحترام .



كانت « لويز ماشيه دي روشمور » ابنة ضابط ممن كانوا
موكلين بخدمة الملك في الصيد ، وأرملة أحد رجال القانون ،
والصديقة الوفية للمالي « بروتو ديزيليت » زهاء عشرين
عاما . . وقد اعتنقت أخيرا المبادئ الحديثة ، فرؤيت في شهر
يوليو سنة ١٧٩٠ - وهي تحفر الأرض في (شان دي مار) ،
وقد حملها ميلها الشديد الى السلطان ، الى التشيع بسهولة
للجبرونديين وللعجبيين ، بينما كانت روحها المتسامحة ،
وتهورها في التحمس ، وبما أوتيته من موهبة للتأمر . .
كانت هذه كلها تربطها بالارستقراطيين وخصوم الثورة ، في
الوقت ذاته ! . . كانت امرأة كثيرة الظهور في المجتمعات ،
تفشي الحانات والمسارح والمطاعم التي تقدم ابداع انواع
الشواء الشائعة ، والمنتديات الصاخبة ، والصالونات ،
وادارات الصحف : والاجتماعات السرية للجان . . ولقد
وانتهت الثورة بأمور جديدة ، ويطرائف مسلية ، وإبتسامات
ومسرات ، واعمال ومشروعات مثمرة . . كانت تتدخل في
المؤامرات السياسية وغير السياسية ، وتعزف على القيثارة
وترسم المناظر الطبيعية ، وتغنى أهازيج الهوى ، وتؤدي
إلرقصات الافريقية ، وتقيم مآدب العشاء ، وتستقبل في

دارها جميلات النساء - مثل كونتة دي بوفور ، والممثلة ديكوان - وتلازم مائدة اللعب والميسر طيلة الليل ، ثم تجد - مع ذلك - وقتا تبدي فيه عطفها ولطفها لاصدقائها . كانت شديدة الفضول ، كثيرة العمل والكلام ، قوية الفتنة ، محبة للهو ، خبيرة بالرجال ، جاهلة بالجماهير . وقد كانت بعيدة عن الآراء التي تجهر بها ، بقدر بعدها عن الآراء التي كان عليها أن تتنكر لها . . . ولم تكن تفهم شيئا - على الإطلاق - مما كان يجري في فرنسا ، وإن راحت تبدي ادراكا بكل شيء . . . وكانت جريئة ، ممتلئة بالجسارة والاقدام ، بفضل جهلها بما في ذلك من أخطار ، وبفضل ثقة لا حد لها بمدى سلطان مفاتها !

وكان العسكري - الذي رافقها - في شرح الشيايب ، تعلق رأسه خوذة نحاسية ، مزدانة بجلد الفهد ، وقد حليت قممتها بريشة حمراء . وصيغت على شكل طائر استرسلت على ظهره ذؤابة طويلة ، بشعة . . . وكانت مسترته حمراء ، بشكل الصديري ، وقد انسدت الى خاصرته حرصا على أن لا تخفى رشاقة انعطافهما . . . وكان يتدلى من خاصرته سيف ضخيم ذو مقبض براق على شكل رأس صقر ، واحتضن عضلات ساقيه الرشيقتين سروال يميل لونه الى الزرقة ، وقد تخللت النقوش الكثيرة على فخذه ، خيوط مجدولة داكنة الزرقة . فبدا الشاب كراقص في زي عسكري أنيق ، في لوحة تمثل « أخيل في سيروس » ، او « زفاف الاسكندر » وقد رسمها أحد تلاميذ « دافيد » متعمدا أن يلف القوام بأحكام . . . وتذكر ((جاميلان)) - في شيء من الاتهام - أنه قد رآه من قبل ، فقد كان هذا العسكري - في الواقع - هو الذي صادفه منذ خمسة عشر يوما ، وقد راح يخطبني

الجمهور من شرفات مسرح الامة .

وقدمته المواطنة روشمور قائلة : « المواطن هنرى عضو اللجنة الثورية ، شعبة حقوق الانسان » . . وكانه تستيقه دائما فى اذبالها ، مرآة للحب ، وشهادة حيه على وطنيتها .

وهنأت المواطنة الرسام بمواهبه ، وسألته عما اذا كان يقبل ان يرسم بطاقة لتاجرة للازياء كانت تهتم بامرها ، واقتريحت لذلك رسما مناسبا ، لامرأة تجرب وشاحا لامرأة كبيرة - مثلا - او عاملة شابة تتأبط صنادوقا صناديق القبعات . ولقد ذكروا لها ابن فراجوران ، ودوم الشاب ، كما ذكروا برودوم ، على انهم خير من يستطيعون تحقيق عمل فنى صغير من هذا القبيل . ولكنها آثرت ان تقصد المواطن ايفاريسست جاميلان . بيد انها لم تمض الى شئ من التفصيلات ، فى هذا الموضوع ، مما اظهر ان لم تطلب الرسم الا لى تفتح باب الحديث فحسب والواقع انها كانت قد جاءت لأمر آخر بعيد عن هذا البعد . فقد طلبت من المواطن جاميلان صنيعا . . اذا علمت بما بينه وبين المواطن ((مارا)) من تعارف ، فجاء تساله أن يقدمها الى ((صديق الشعب)) ، الذى كانت تراه أن تلقاه . فاجاب « جاميلان » بأنه كان اضال شأننا أن يقدمها ، لاسيما وهى فى غير حاجة الى أكثر من تتقدم بنفسها الى « مارا » ، فما كان هذا - بالرغم استغراقه فى الأعمال - بالرجل الذى يشق على امرى بلقاءه ، كما قيل لها . وارف جاميلان قائلا : « لسوء مستقبلك أيتها المواطنة ، اذا كنت منكودة الحظ ، الى قلبه الكبير يتأثر بالمصائب ، ويرثى للآلام . . وليس

تقبلك اذا كانت لديك بعض أسرار تفضين بها اليه من
 الصالح العام ، فقد كرس أيامه للكشف عن الخونة !
 واجابت المواطنة «روشمور» بانها تسعد اذا قدر لها
 تحيى في شخص «مارا» مواطنا على الشان ، ادى
 لاد خدمات جليله ، وبوسعها ان يؤدى لها مزيدا من
 مات اجل .. وقالت انها تطمع في ان تمكن هذا المشرع
 الاتصال برجال حسنى النوايا ، ومحبين للبشرية ،
 هم الاقدار بثروات تمكنهم من ان يمدوه بوسائل جديدة
 خفاء حبه المتأجج للانسانية .. واضافت قائلة : « من
 نتحب تمكين الاغنياء من التعاون على تحقيق الرخاء
 لعب ! » ..



و حقيقة الأمر ان المواطنة كانت قد وعدت « مورهارت »
 بان تمكنه من تناول العشاء مع « مارا » . وكان
 مورهارت « سويسريا كصديق الشعب ، اشرك معه
 دا من نواب المؤتمر - جوليان نائب تولوز ، وديلوناي
 ب انجير ، والراهب السكابوشى السابق شسابو - على
 صارية على اسهم شركة جزر الهند . وكانت الحيلة غاية
 البساطة ، تتمثل في العمل على تخفيض سعر هذه
 سندات الى ستمائة وخمسين ليبرة ، بطرق احتيالية ،
 هيدا لشراء أكبر عدد منها بهذا السعر ، ثم رفعها بعد
 ك الى اربعة آلاف أو خمسة آلاف ليبرة ، بوسائل تشيع
 ظمائية في النفوس . ولكن شسابو وجوليان وديلوناي
 تضحوا ، وكانت الشبهات تحوم حول لأكروا ، وفابر
 بجلانتين ، بل ودانتون نفسه . ومن راح زعيم
 استغلاليين - البارون دى بانز - يبحث عن أعوان جدد

في المؤتمر ، واوز الى المصرف «مورهارت» بمقابلة «مارا» . وما كانت هذه الفكرة بالفريبة — كما يبدو لأول وهلة — بالنسبة للاستغلايين المعادين للثورة .. فقد كان هؤلاء القوم يضطرون دائما الى التواطؤ مع دوى السلطان في تلك الأيام . وقد كان «مارا» — بشهرته الشعبية ، وقلمه ، وشخصيته — ذا نفوذ منيع .. كان تألق الجيرونديين قد خبا ، واتباع «دانتون» قد اكتسحتهم العاصفة فلم يعودوا في الحكم .. وكان روبسبير — معبود الشعب — ذا نزاهة يفار عليها ، وتنتهيه الهواجس من اجلها ، فهو لا يدع سبيلا لشيء أن يمسها .. لذلك لم يكن تمة بد من الالتفاف حول «مارا» ، وتعزيز آماله في اليوم الذي يصبح فيه ديكتاتورا .. وكان من شيء ينبئ بذلك : شهرته ، وطموحه ، ومبادرته الى التحمس لانتهاج أعظم الوسائل .. وكان من المحتمل ان يفر «مارا» — في النهاية — النظام والأمن ، والأحوال المالية ، والرخاء .. وكم من مرة سما وتفوق على أولئك المتهوسين الذين كانوا يبارونه في الوطنية .. وقد حمل — منذ زمن — على المتعصبين للثورة بمثل ما كان يحمل على المعتدلين تقريبا . وبعد أن أهاج الشعب وحمله على شنق المحتكرين في حوائيتهم المليئة بالسلع ، عاد فدعا المواطنين الى الهدوء والتعقل ، وأصبح من رجال الحكم !

وبالرغم من بعض الضجيج الذي أثير حوله — كما أثير حول غيره من رجال الثورة جميعا — فان هؤلاء المتوسلين بالذهب لم يكونوا يرونه قابلا للرشوة ، ولكنهم أدركوا أنه كان مغرورا بنفسه ، سهل الاقتناع . فراودهم الأمل في اكتسابه بألوان الملق ، وبالتظاهر بالانصياع له ، بوجه خاص .

وعولوا على أن يسلطوا - بفصله - البرودة والحرارة على جميع الاوراق المالية التي قد يرغبون في شرائها ثم اعادة بيعها ، وأن يسوقوه الى خدمة مصالحهم وهو يظن أنه لا يعمل الا للصالح العام !

والت المواطنة « روشمور » على نفسها أن تجمع بين الصحنى المشرع ورجل المال ، فقد كانت وسيطة عظيمة ، لاسيما وانها كانت لا تزال في سن تسمح بالمغامرات الغرامية .. وصور لها خيالها الارعن هذا الرجل الوحشى الفطيرة - الذى كانت يداه لا تزالان مخضيتين بدماء سبتمبر - منغمسا مع فريق رجال المال الذين كانت وسيطة لهم ، وقد انساق بمشاعره - بل وبثحمسه - لتيار المضاربة ، فى هذا الوسط الذى كانت تعتر به .. وسط المحتكرين ، والمتعهدين ، والجواسيس الاجانب ، والمقامرين . والفوانى ! .. ومن ثم ألحت على المواطن جاميلان كى يعقودها الى دار « صديق الشعب » ، الذى كان يقطن شارع (ديه كورديليه) ، بجوار الكنيسة ، غير بعيد عن دار جاميلان . وبعد أن أبدى بعض التمتع ، انصاع الرسام لرجاء المواطنة .

وابى الفارس هنرى أن يرافقهما - اذ دعى لذلك - متعللا بأنه كان يعتزم الاحتفاظ بحريته ، لاسيما ازاء المواطن « مارا » الذى ادى - بلا مرأى - كثيرا من الخدمات للجمهورية ، ولكنه كان قد بدأ يهن ويفتر .. أو لم يكن هو الذى نصح الشعب الباريسي - فى وريقتة - بالاستسلام ؟! .. وراح الشاب « هنرى » ينهى - بصوت حزين وزفرات حرى - الجمهورية المقدورة بأيدى أولئك الذين وضعت فيهم أمثها .. إذ لمع « دانتون » فيكرة فسرخص ضريبة على الأغنياء ،

وعارض « روبسبير » باستمرار لجان الثورة ، وقل
« مارا » بنصائحه الرعيدة على تحفز المواطنين .. و
الشباب صائحاً : « أواه ! .. لكم يبدو هؤلاء الرجال ضعافاً
قيسوا بليكرك وجاك رو .. رو ! ليكلرك ! لقد كنتم
الصديقين الصادقين للشعب ! »

ولم يسمع « جاميلان » هذه العبارات التي كانت كفا
بأن تشير حنقه ، إذ كان قد ذهب الى الحجرة المجاورة
لمرتدى حلتى الزرقاء .. وقالت المواطنة « روشمور
للمواطنة جاميلان : « لك أن تفخرى بأبنك ، فهو عظيم
بموأهبه وبخلقه ! »

فأدلت المواطنة جاميلان - رداً على ذلك - بشهادة طيب
عن أبنها ، دون أن تغلو في أطرائه أمام سيدة من الطبقة العليا
إذ كانت قد تعلمت في طفولتها أن أول واجب على الصغار
هو أن يتواضعوا أمام الكبار ! .. وكانت ميالة الى الشكوى
ولديها الموردين الذى لا ينضب ، وقد كانت تجد فى شكائهم
سرية لآلامها ، فكانت تفضى بمتاعبها - فى أسهاب - لأولئك
الذين كانت تظنهم قادرين على أن يخففوا عنها ، وقد لاحظ
لها مدام دي روشمور من هذا الفريق - ومن ثم فقد انتهرت
هذه المناسبة المواتية ، وروت لها ضائقة الأم والابن ، اللذين
كانا يتضوران جوعاً .. إذ لم يعد هناك من يشتري لوحات
فنية ، وقد قتلت الثورة التجارة وكأنها ذبحتها بسكين ،
وصارت حاجات المعيشة نادرة ، وخرجت أسعارها موهولة
الناس ..

ورأحت العجوز تسرد همومها بكل ما شفتيها من مرونة

شكايات . وانصرفت الى تحريك شجون السيدة - التي
قدستها غنية واسعة النفوذ - في اقصر وقت ممكن ،
لشئ اهتمامها بأمر ابنها . . وكانت تشعر بأن جميسال
ايفاريسست « يعاونها على استمالة عطف امرأة طيبة المنبت
.. والواقع أن المواطنة « روشمور » أبدت عواطف رقيقة ،
تأثرت لجرد التفكير في آلام ايفاريسست وامه ، وفكرت في
وسائل التخفيف عنها ، فعزمت على أن تحمل الاغنياء من
اصدقائها على شراء لوحات الرسام . وقالت وهي تبسم :
« ذلك لانه لا تزال ثمة اموال في فرنسا ، ولكنها مخبأة ! » ..
فضلا من ذلك ، فقد عولت على أن تحصل لايفاريسست على
عمل لدى « مورهارت » ، أو لدى الشقيقتين « بيريجو » ،
أو على منصب لدى أحد موردي مطالب الجيوش ، مادامت
دولة الفن قد دالت ! .. ثم خطر لها - بعد ذلك - أن هذا
ليس ما ينبغي لرجل أوتى مثل شخصيته ، فما لبثت بعد
أن فكرت لحظة ، أن اومات بما أوحى أنها وجدت العمل
اللائق به ، وقالت : « لم يعين بعد عدد من المحلفين في محكمة
الثورة . . أن منصب المحلف أو القاضي هو الذي يليق بابنتك ،
وانى لعل صلة بأعضاء لجنة الامن العام ، واعرف روبسبير
الأكبر ، وكثيرا ما يتناول أخوه العشاء على مائدتي . لسوف
أحدثهم . . سأحدث الى هونتانيه ، وديما ، وفوكيه . . »
ورفعت المواطنة جاميلان أصبعها الى شفيتها - وهي
متأثرة ، شاكرة - اذ ولج « ايفاريسست » الرسم . وما لبث
أن هبط مع المواطنة « روشمور » السلم المعتم ، الذي كست
درجاته - المصنوعة من الخشب والبلاط - طبقة عتيقة
من القذارة ..

وفي (البون نيف) - حيث مالت الشمس الى المقيب ،
فأستطال ظل القاعدة القائمة التي تحمل تمثال « الجواد
البرونزي » ، والتي أصبحت مزدانة بالوان علم الامسة -
وقف حشد من أبناء الشعب ، رجالا ونساء ، ينصتون في
جماعات صغيرة الى مواطنين كانوا يتكلمون بأصوات خفيفة
.. وكان الحشد يادى الجسزع ، مغلدا الى صمت كانت
تخرقه - بين آن وآخر - أنات وصيحات مفضبة . وانطلق
كثيرون ، يجدون السير مسرعين نحو شارع (تيونفيل) ،
الذي كان يسمى - من قبل - شمسارغ ولى العهد ..
واذ اندس « جاميلان » في إحدى هذه الجماعات ، سمع أن
(مارا) قد أعتيل ! .. وشيئا فشيئا ، تأكد النبا واتضححت
تفصيلاته .. فلقد أعتيل « مارا » في حوض استحمامه ،
بيد امرأة جاءت على عجل من (كايين) ، لترتكب هسيبه
الجريمة ! .. وكان البعض يعتقدون أنها هربت ، ولكن الغالبية
قالت أنها أعتقلت .

وبدا جميع من أحتشدوا هناك ، أشبه بقطيع من الاغنام
بلا راع ! .. وقد راحوا يرددون في خواطرهم : « مارا المرهف
الحس ، المحب للانسانية والخير .. مارا لم يعد موجودا
ليتولى قيادنا ، وهو الذي لم يخطيء قط ، والذي حدى
كل شيء قبل وقوعه ، وجروا على أن يكشف كل شيء ! ..
ترى ما العمل ؟ وماذا يحتمل أن يصير اليه الامر ؟ .. لقد
فقدنا ناصحنا ، والمدافع عنا .. فقدنا صديقنا ! » .. كانوا
يعرفون من أين أنبعثت الطعنة ، ومن الذي وجه ذراع تلك
المرأة ، فراحوا يفهمون في توجع : « لقد طعنت مارا الايدي
المجرمة التي تبغى هلاكنا . ان موته نذير بمذبحة لجميع
البرانيين ! »

وتباينت الاقوال عن ظروف هذه الوفاة المفجعة ، وعن آخر أقوال الضحية .. وتطايرت الاسئلة عن القاتل الذى لم يعرف عنه سوى أنه كان امرأة شابة أوفدها الاتحاديون الخونة . واقسمت المواطنات على اعدام المجرمة ، وقد كثرن عن انيابهن وأشهرن أظفارهن .. واذا وجدن فى المقصلة أرحم من أن توفىها جزاءها ، نادى بجلد هذه المرأة المتوحشة ، ودق عظامها على عجلة التعذيب ، وتمزيقها .. ورحن يبتدن فى عقولهن ألوانا جديدة للتعذيب . وسأقت شرذمة من الحرس الوطنى المسلحين رجلا بآدى العزم ، الى مركز اللجنة .. وكانت ثيابه ممزقة ، وجداول من الدم تسيل على وجهه الشاحب . فقد بوغت وهو يقول أن « مارا » كان يستحق المصير الذى لاقاه ، جزاء تحريضه - الذى لم ينقطع - على النهب والقتل .. واستطاع رجال الحرس أن ينقذوه من غضب الشعب بعناء . واتهم بأنه كان شريكا فى الاغتيال ، فارتفعت الاصوات - فى طريقه - متوعدة بالموت !

ومكث جاميلان جامدا ، وقد شل الالم ذهنه ، وجفت فى عينيه الابيتين دموع رقيقة ، وامتزج فى قواده حزن الابن على أبيه ، بحب الوطن ، وباشفاق على الشعب .. وراح يفكر فى نفسه :

« ها هو ذا مارا ، بعد لوبيكتييه ، وبعد بوردن ! .. لقد أدركهم مصير الوطنيين : مذابح فى شان دومار ، وفى نانسى ، وفى باريس .. لسوف يفتنون جميعا ! » .. وخطر بباليه « ويمفن » الخائن الذى كان يزحف - من عهد غير بعيد - على باريس ، على رأس جحافل من الملكيين قوامها ستون ألفا ، والذى كان خليفيا بأن يحول المدينة الباسلة المفدورة الى تار

ودم ، لو لم يصدده الوطنيون الشجعان عند (فيرنون) . .
 وكم من أخطار كانت بعد هناك ! . . كم من خطط إجرامية !
 . . كم من خيانات كانت حكمة « مارا » - وحده - ويقظته
 كفيلتين بمعرفتها واحباطها ! . . فمن بعده يعلن أن « كوستين »
 كان قد انقلب وتكص على عقبه وابى أن يخلص (فالنسيين)
 من الحصار . . وأن « بيرون » كان يتلأأ في (فانديه) السفلى ،
 تاركاً الأعداء يستولون على (سومور) ويحاصرون (نانت)
 . . وأن « ديللون » كان يخون الوطن في (أرجون) ؟

وكان الضجيج الرهيب يزداد حوله ، من لحظة الى اخرى
 « **لقد مات مارا ! . . قتله الارستقراطيون !** » . . واذا تحول
 - وقلبه مثقل بالحزن ، والحق ، والحب - فصار ليؤدى
 التحية لشهيد الحرية ، دنت منه قروية عجوز ترتدى شالا ،
 لتسأله عما اذا كان السيد « مارا » - الذى اغتيل - هو
 عين القس « مرا » . . اسقف سان بير دى كيروا !

الفصل الثامن



♦ كانت الليلة السابقة على العيد ليلة هادئة ، صافية .
 وراحت « ايلودى » تمشى - معتمدة على ذراع « ايفاريس »
 - فى ساحة الائتلاف (شان دى لا فيديراسيون) . وكان
 العمال قد أقاموا - فى عجلة - أعمدة ، وتمائيل ،
 ومسابد ، وجبلا ، ومذبحبا . . . وتمائيل
 رمزية هائلة: هرقل - رمزاً للشعبينيلوح بهراوته ، و « (الطبيعة) »
 ترضع « (الكون) » ثدييها اللذين لا ينضببان . . هذه التماثيل
 قامت فجأة فى العاصمة التى كانت فريسة للجوع ، والتى
 كانت ترهف السمع فى دعر ، للتأكد من أن أصوات المرافق
 النمساوية لم تكن تتردد على طريق (مو) . وكان الملكيون
 قد عوضوا توقفهم أمام (نانت) بانتصبات باهرة ،

وأحاطت بالمدينة الثورية الكبيرة (باريس) حلقة من حديد ولهب وبغضاء . ومع ذلك ، فإنها راحت تستقبل في ابهة - وكأنها المسيطرة على امبرطورية واسعة - وفود الجمعيات العامة الاولى ، التي اقرت الدستور . كان المتحالفون قد هزموا ، وتغلّبت الجمهورية - موحدة البنيان . متماسكة الاركان - على أعدائها !

وبسط « ايفاريسست » ذراعه مشيرا الى الساحة الشعبية ، قائلا : « هناك رمى « بايى » الخائن الشعب بالرصاص ، في ١٧ يوليو سنة ١٧٩١ ، عند قاعدة مذبح الوطن . . . واذ شهد قاذف القنابل اليدوية « باسافان » المذبحة ، آب الى داره ، فمزق ردائه ، وصاح : « لقد اقسمت ان أموت مع الحرية ، وما أنذا أموت ، اذ لم يعد لها وجود ! » . . . واطلق الرصاص على مخه ! »

وفي تلك الاثناء ، كان أهل الفن والعامة يتفقدون الاستعدادات للعيد في اعجاب ، وقد تجلى على وجوههم حب للحياة أشد كآبة من حياتهم ذاتها ! . . . وكانت أعظم الاحداث تتضاءل - اذا ما تغلّفت في نفوسهم - وتنكمش بالنسبة اليهم ، وتفدو عقيمة تافهة مثلهم ! . . . وكان كل زوجين يسيران حاملين على اذرعتهم ، وجارين بأيديهما ، أو مطلقين امامهما أطفالا لم يكونوا اجمل منظرا من أبويهما ، ولا تبشر البوادر على انهم سيصبحون أسعد منهما ، بل انهم قد ينجبون للحياة أطفالا آخرين لا يفوقونهم مرحا ولا جمالا ! . . . ومن حين الى آخر ، كانت تمر فتاة موفورة الجسم والجمال ، توحى باثناء مرورها - للشباب برغبة كريهة ، والشيوخ بحسرة على الحبيسة الناعمة !

وبالقرب من المدريسة الحسرية ، اطلع « ايفاريسست »

صاحبه « ايلودى » على تماثيل مصرية صاغها (دافيد) على انماط رومانية من عهد « اوجست » : وسمعا اذ ذاك شيخا باريسيا زان شعره بالمسحوق الابيض (البودرة) ، وهو يصيح لنفسه : « لكم يخال المرء نفسه على ضفاف النيل ! » وكانت ثمة أحداث هامة قد جرت فى متجر « لامور بانتر » خلال أيام ثلاثة لم تر « ايلودى » فيها صديقتها . فان المواطن « بليز » اتهم لدى لجنة الامن العام بالفش فى المون التى كان يمد الجيش بها . وكان تاجسر الصور معروفا فى القطاع الذى يقطنه ، لحسن الحظ ، فاذا لجنة المراقبة فى قطاع (ديه بيك) تجزم أمام لجنة الامن العام بوطنيته ، فلقى انصافا كافيا . . واذ روت « ايلودى » هذا الحادث ، وهى مهتاجة المشاعر ، اردفت : « نحن الآن فى امان ، ولكن الاخطر كان حاميا ، ولم يكن بين أبى والسجن سوى قليل . ولو ان الخطر امتد ساعات قليلة اخرى ، لسألتك يا « ايفاريسنت » بأن تسعى لدى أصدقائك من أصحاب النفوذ بوساطات من أجله ! »

ولم يجب « ايفاريسنت » . وكانت « ايلودى » أبعد من أن تسبر غور صمته . وسار - وقد تشابكت يداهما - بطول مروج (السين) ، وهما يتطارخان حنانهما المتبادل بلفة « جوليا » و « سان برو » (٤٣) : فقد اتساح لهما « جان جاك » الطبيب وسائل توشية هواهما وتجميله .

وكان المجلس البلدى قد حقق المفجرة التى مكنت للرخاء من أن يشمل المدينة الجائعة ليوم كامل . فقد أقيمت سوق بميدان (الإنفاليد) - على ضفة النهر - فراح التجار يبيعون فى أكواخ صيفية : السجق ، وقطعا من لحم الخنزير ، وامعاء

(٤٣) بطلا قصة جان - جاك روسو : « ايلواز الجديدة » .

الخنزير المحشوة ، وافخساذ الخنزير المملحة ،
والمكسوة بزهور الفار ، وفطائر (نانير) ، وخبز بالتوابل ،
وفطائر صغيرة هشة ، وارغفة من ذات الاربعة أرطال ،
وشراب الليمون ، والنبيذ . كذلك كانت هناك حوانيت تباع
فيها الاناشيد الوطنية ، والشارات ، والاشربة ذات الالوان
الثلاثة ، وحافظات النقرد ، وسلاسل من النحاس الاصفر ،
وكافة السلع الصغيرة البهيجة . واذ وقفا امام منصة صائغ
متواضع ، انتقى « ايفاريسيت » خاتما من الفضة ، نقشت
عليه رأس « مارا » ، مطعمة بخيوط من الحرير ، فدفعه
حول اصبع « ايلودي » .



وفي المساء ذاته ، زاره « جاميلان » دار المواطنة « روشمور »
بشارع الشجرة الجافة (لاربر سيك) ، اذ كانت قد أرسلت
تستدعيه لامر عاجل . ووجدما في مخدعها ، مستلقية على
مقعد طويل ، في ثوب أنيق يكشف عن مفاتن جسمها . ولما
كان مسلك المواطنة ينم عن ميول شهوانية ، فان كل ما حولها
كان يشي بمفاتنها . وملاهيها ، ومواهيها : فكانت هناك
قيثارة بالقرب من « كلافسنان » (٤٤) ، و « جيتار » على
مقعد وثير ، واطار للتطريز شدت عليه قطعة من قماش
حريرى . . وعلى المنضدة كانت ثمة مسودة لصورة من
الحجم الصغير ، وأوراق ، وكتب . وكانت هناك خزانة للكتب
غير منظمة ، وكأنما عبثت بها يد جميلة ، تخلو من المعرفة
أكثر مما تخلو من الذوق . . ومدت السيدة يدها الى

(٤٤) آلة موسيقية تدار بالعزف على أوتارها . أو بملتحاح زنبركى على
السواك .

« جاميلان » ليقبلها ، قائلة : « سلاما ايها المواطن المحلف!.. »
 لقد أسلمنى روبسيير الاكبر - فى هسدا اليوم بالذات -
 خطابا فى صالحتك ، للرئيس هيرمان .. خطاب صيغ أبدع
 صوغ ، فقد جاء فيه - على وجه التقريب - « أوصيك
 بالمواطن جاميلان ، الذى تزكيه مواهبه ووطنيته . وارى
 واجبا على أن أقدم اليك مواطنا ذا مبادئ قوية ومسلك
 وطيد فى انتهاج النهج الثورى . وما أراك تهمل اتاحة فرصة
 لجمهورى كى يكون نافعا .. » . وقد حملت هذه الرسالة
 - دون تلكؤ - الى الرئيس هيرمان الذى تلقانى بأدب جم ،
 وأقر تعيينك فورا .. لقد أبرم الامر ! »

وقال جاميلان ، بعد لحظة صمت : « بالرغم من أننى لا
 أمتلك لقمة عيش أتيجها لاهى ، الا أننى أقسم بشرفى - ايثا
 المواطنة - أننى لا أقبل مهام المحلف الا لخدمة الجمهورية
 والثار لها من جميع أعدائها ! » . ورات المواطنة أن هذا
 الشكر فاترا ، وأن المجاملة جامدة ، فحدثت أن « جاميلان »
 كانت تعوزه الرقة واللفظ . ولكن حبها للشباب كان أقوى
 من أن لا تغفر معه مثل هذه الخشونة . فقد كان « جاميلان »
 جميلا ، وقد الفتة جديرا برعايتها ، وقالت لنفسها :
 « لسوف يصاغ بالشكل الذى ينفعنا ! » . ومن ثم فقد دعتة
 الى تناول العشاء عندها فى كل ليلة ، بعد المسرح . وقالت له :
 « لسوف تقابل فى دارى ذوى الفطنة والمواهب : ايليفيو ،
 وتالما ، والمواطن فيجيه الذى يقرض الزجل ببراعة مدهشة
 .. ويقرأ المواطن « فرانسوا » علينا مسرحيته « بامبلا »
 التى تمثل - فى هذه الاونة - على مسرح الامة . أن أسلوبها
 رشيق وعفيف ، ككل ما ينساب من قلم المواطن فرانسوا ..
 أن المسرحية مؤثرة ، حتى أنها تستدر دموعنا . أن « لانج »

الشابة هي التي تقوم بدور باميلان ! «
 وأجاب جاميلان : « اننى آخذ بحكمك عليها أيتها المواطنة »
 ولكن مسرح الامة لا يمت للامة الا بالقليل . وانه لما يسيء
 الى المواطن فرانسوا أن تؤدي مسرحياته على منصة لوئتها
 اشعار « لايا » التعسة ، فان فضيحة « صديق القوانين » لم
 تنس بعد . . . ! « . وهنا قالت المواطنة : « لك أن تقول عن
 « لايا » ما شئت ، أيها المواطن جاميلان ، فهو ليس مسن
 أصدقائي ! »

وما كانت المواطنة قد استخدمت نفوذها في تعيين ((جاميلان))
 في هذا المنصب المرموق عن رغبة خالصة في الخير .
 فلقد كانت تعترم - بعد الذى فعلته ، وما كانت ترجو أن
 تفعله في المستقبل من أجله - أن تشده اليها برباط وثيق ،
 فتطمئن الى درع تحتمى به من عدالة كان من المحتمل أن
 يكون لها معها شأن - في يوم من الايام - اذ انها كانت ترسل
 كثيرا من الرسائل الى داخل فرنسا وخارجها . . . وكانت
 هذه الرسائل من قبيل يثير الشبهات .

وقالت أخيرا : « أتذهب الى المسرح أحيانا ، يا مواطن ؟ » .
 وولج الحجرة - في هذه اللحظة - الفارس « هنرى » ، وهو
 أكثر فتنة من « باثيل » الطفل - (٥) - وقد ازدان وسطه
 بمسدسين ضخمين . فقبل يد المواطنة الحسناء ، التي قالت
 له : « ها هو ذا المواطن ايفاريست جاميلان ، الذى قضيت
 النهار من أجله في لجنة الامن العام ، والذى لم يعرف لى في
 هذا فضلا . فهلا انحيت عليه باللوم ؟ » . فصاح العسكري :
 « آه ، أيتها المواطنة ، أرايت مشرعينا في (التويليرى) ؟ . .
 ياله من منظر يثير الغم ! أفكان يليق بممثل شعب حر أن

يجتمعوا تحت سقف طاغية مستبد ؟ .. أن الثريات التي كانت تضيء - من قبل - فوق فتن « كاييه » (٤٦) ، ومبازل « انتوانيت » ، تنير اليوم امسيات مشرعينا . انه لأمر يهز أركان الطبيعة ! »

فردت المواطنة قائلة : « هنىء المواطن جاميلان يا صديقى ، فقد عين محلفا فى المحكمة الثورية ! » . فقال هنرى : « تهانئى ايها المواطن . يسعدنى أن أرى رجلا له شخصيتك موكلا بمثل هذه المهام . ولكننى - والحق يقال - قليل الثقة فى هذه العدالة المرسومة وفقا لاساليب نظامية معينة ، والتي انشأها المعتدلون من أعضاء المؤتمر . . . وفى هسند « النيميسيس » - (٤٧) - اللينة ، الرخوة ، التي تحابى المتآمرين ، وتترفق بالخونة ، ولا تكاد تجرؤ على أن تهوى بقبضتها على أنصار التحالف ، وتخشى أن تستدعى النمىسوية إلى قفص الاتهام . . لا ، ليست هذه بالمحكمة الثورية التي تنقذ الجمهورية . أنهم لمجرمون أولئك الذين يوقفون مسير العدالة الشعبية فى الموقف المحفوف بالآخطار ، الذى نقفه الان ! »

وهنا قالت المواطنة روشمور : « هنرى . . ناولنى هذه القينة . . ! »



عندما عاد جاميلان إلى مسكنه ، وجد أمسه والشيخ « بروتو » يلعبان الورق على ضوء واهن ينبعث من شمعة

(٤٦) « كاييه » لقب أسرة « هوج » ، ثالث أسرة ملكية اعتلت عرش فرنسا . وقد أطلقه الثوار على لويس السادس عشر بعد خلعهم ، أيدانا بارتداده مواطنا عاديا .
(٤٧) ربة الإنتقام .

مدخنة . وكانت المواطنة تعلن - بلا تحرج - ان معها مجموعة ثلاثية من (الروا) « (٤٨) » . . . وما ان علمت ان اينها اصبحت محلفا حتى قبلته في حراره وابتهاج ، وقد رأت في ذلك شرفا كبيرا لكليهما ، وأنه سيكفل لهما معا القوت الكافى ، طيلة أيامهما ! . . . وقالت : « اننى لسعيدة وفخورة بأن اكون أم محلف ! . . . ان العدالة امر جميل ، وهو اثر الامور لزوما ، فبدون عدالة يتعرض الضعفاء للاستياء فى كل لحظة . واعتقد أنك ستكون محلفا طيبا يا ايفاريستى ، فقد عهدت لك منذ الطفولة - عادلا ومنصفا فى كل شيء . ولقد اعتدت ان لا تطيق الفبن ، وأن تقاوم - بكل قواك - العنف . . . واعتدت أن تكون رحيما بالمنكوبين ، وهذا أجمل ما يزين القاضي . . . ولكن ، نبتنى يا ايفاريسست ، ما الذى سترتديه فى هذه المحكمة العظيمة ؟ »

واجابها جاميلان بأن القضاة يرتدون قبعة مزدانة بريشات سوداء ، ولكن المحلفين لا يرتدون أى زى رسمى ، وانما يلبسون ثيابهم العادية . فقالت المواطنة : « كان من الافضل أن يرتدوا الوشاح والشعر المستعار ، فهم يبدوون بهذا أكثر وقارا . . . ومع أنك تهمل - فى معظم الاحيان - ملابسك ، الا أنك جميل ، وتظهر وسيما فى ثيابك . على أن أغلب الرجال يحتاجون الى شيء من الزينة ليظهروا بمظهر يليق بالاعتبار . . . من الافضل أن يرتدى المحلفون الوشاح والشعر المستعار ! »

وكانت المواطنة قد سمعت ان مهام المحلفين فى المحكمة تعود عليهم بدخل ما ، فلم تحجم عن السؤال عما اذا كانوا يكسبون ما يكفل لهم عيشا أميناً محبسترا ، اذ لا بد

(٤٨) ورقة اللعب المعروفة بـ « الشايب » و « روا » بالفرنسية
معناها الملك .

للمحلف - كما قالت - من أن يظهر بمظهر طيب بين الناس .
وعلمت بارتياح أن المحلفين يتقاضون مكافأة قدرها ثمانى
عشرة ليبرة عن الجلسة ، وأن كثرة الجرائم ضرس
سلامة الدولة تضطرهم الى عقد جلسات كثيرة .

وجمع الشيخ « بروتو » أوراق اللعب ، ونهض قائلاً
لجاميلان : « لقد وكل اليك - أيها المواطن - منصب ذو
سلطان ومهابة ، فأهنتك اذ تعير أضواء ضميرك وومضك
لمحكمة هي أوطد المحاكم قدما وأقلها تعرضاً للخطأ ، لأنها
تبحث الخير والشر ، لا فى حد ذاتيهما ، وإنما فى علاقاتهما
بالمصالح المتشابكة ، وبالمشاعر التى تتكشف . سيكون عليك
أن تحكم بين الحق والحب - اللذين يتكشفان من تلقاء
نفسيهما - وليس بين الحق والباطل ، اللذين يشق
التمييز بينهما على عقول البشر الضعيفة . فإذا حكمت
وفقاً لوحى قلبك ، فلن تتعرض للزلل ، لأن الحكم يكون
صالحاً إذا أَرْضَى عواطفك ، وهى شرعتك القدسية . . ولكن
الامر سوء ، ولو كنت رئيسك لحدوت حذو « بريدوا » (٤٩) ،
فأركن الى ما يقضى به النرد ! . فان هو الاضمن ، فيمسيا
يتعلق بالعدالة !

(٤٩) شخصية مضحكة ساذجة ، من ابتداء « رابليه » ، كان صياحها
يلجأ الى النرد (الزهر) يستوحيه قراراته .

الفصل التاسع



• كان على « ايفاريسست جاميلان » أن يبدأ مهامه في ١٤ سبتمبر ، عقب اعادة تشكيل المحكمة ، بحيث تقسم الى اربعة اقسام ، لكل منها خمسة عشر محلفا . وكانت السجون غاصة ، والمدعون العامون يعملون ثمانى عشر ساعة يوميا . فان المؤتمر - ازاء هزائم الهيبوش ، وثورات الاقاليم ، والمؤامرات ، والدسائس ، والخيانات - قد فرض الإرهاب! .. كانت الالهة عطشى !

وكان اول اجراء للمحلف الجديد ، أن قام بزيارة تقدير للرئيس « هيرمان » ، الذى فتنه برفقة حديثه ، ولطف بمسلكه ، واذ كان مواطنا وصديقا لروبيبير ، وكان يقاسمه المشاعر ،

فانه كان يكشف عن قلب حساس ، فاضل ، ونفس مفعمة بالاحاسيس الانسانية ، التى غابت عن قلوب الاجانب امداء جد طويل ، والتي كانت مبعث مجسّد خالد لديباتى وبيكاريا (٥٠) . وكان يفتبط لشعور الرحمة الذى تجلى - فى النظام القضائى - فى كبح التعذيب والوسائل التعسفية او القاسية ، ويسره ان يرى ان عقوبة الاعدام - التى كانت موضع اسراف فيما مضى ، والتي كانت كثيرا ما تستخدم فى عقاب الذنوب التافهة - قد ازدادت ندرة ، واصبحت تقصر على الجرائم الكبرى . بل انه ألغاهها من تلقاء نفسه - كما فعل روبسبير - فى كل مالم يكن يمس السلامة العامة . ولكنه كان يرى أن من الخيانة للدولة أن لا يقضى بالاعدام فى الجرائم التى ترتكب ضد سيادة الدولة ! . . وكان كل زملائه يرون هذا ، اذ كانت الفكرة القديمة - التى أقسم بها العهد الملكى - عن « حق الدولة » ، مصدر اثم للمحكمة الثورية . وقد ادت ثمانية قرون من الحكم المطلق الى تشكيل عقليات القضاة على هذا النحو . . وعلى مبادئ « الحق الالهى » ، راحوا يصدرن احكامهم على أعداء الحرية !

ومثل « ايفاريسست جاميلان » فى اليوم ذاته ، امام المدعى العام - المواطن « فوكيه » - الذى استقبله فى المكتب الذى اعتاد أن يعمل فيه مع سكرتيره . . . وكان رجلا متين البنيان ، خشن الصوت ، له عينا قط ، ويحمل على وجهه المشوه بالجدرى ، وعلى بشرته الرصاصية اللون ، امارات القسوة التى تنشأ عن حياة تفرض الجلوس والعزلة على الرجال

(٥) شارل ديپاتى كان رئيسا لبرلمان « بوردو » فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر واشتهر بالنسزاهة . و « سيزار دى بيكاريا » كان فيلسوفا ايطاليا ذا ابحاث جنائية ، فى نفس الفترة . ومن مؤلفاته اقتبست كثير من مبادئ القانون الجنائى .

الاقوياء ، الذين خلقوا للعمل في الهواء الطلق ، وفي الاعمال التي تتطلب جهودا عنيفة . فقد كانت الملفات والاضابير متراصة حوله كجدران القبر . . ومن الجلى انه كان يحب هذه الصومعة الورقية الرهيبة ، التي كانت تبدو كأنها توشك ان تخنقه . وكانت احاديثه احاديث رجل القضاء الجاد ، الذى وهب نفسه لواجباته ، والذى لا يتجاوز عقله نطاق مهامه . .

وانفاسه الحارة تفوح برائحة الخمر التي كان يتناولها ليشجذ قواه ، والتي لم تكن تصعد الى مخه - فيما يبدو - اذ كانت احاديثه تتسم بالجلال والوضوح ، برغم انها كانت تنم عن ذكاء متوسط ! . . وكان يقيم في مسكن صغير في قصر العدالة ، مع زوجه الشابة التي انجبت له توأمين . . وهذه الشابة ، والعمة « هنرييت » ، والخادم « بيلاجى » ، كن جميع اهل داره . وكان يبدى لهؤلاء النسوة لطفًا وطيبة . . وقصارى القول انه كان رجلا ناجحًا في أسرته ومهنته ، وان لم يؤت آراء كثيرة او يمتاز بشيء من سعة الافق اطلاقًا ! ولم يكن « جاميلان » يقوى على كبح نفسه عن ان يلاحظ - في استياء - ان رجال القضاء في النظام الجديد كانوا يشبهون رجال القضاء في العهد القديم ، في الفكر وطرق التفكير . فهكذا كان هيرمان - الذى مارس مهام النائب العام في مجلس (آرتوا) - وفوكينه ، الذى كان مدعيًا قديمًا في (شاتيلية) . اذ احتفظا بطابعهما ، حتى لقد خشي « ايفاريسست جاميلان » من نكسة ثورية .

وعندما بارح المحكمة ، اجتاز رواق قصر العدالة . وتوقف امام الحوانيت . حيث كانت كائنة ألوان السلع معروضة بتنسيق فنى . وفي حانوت المواطنة « تينو » ، تصفح المؤلفات التاريخية ، والسياسية ، والفلسفية : « اغلال

العبودية « و « رسالة في الاستبداد » ، و « جسر رائم الملكات » . . وقال لنفسه : « مرحى ! » هسهسه كتابات الجمهوريين ! » . ثم سال صاحبة المكتبة عما اذا كانت تبيع كثيرا من هذه الكتب ، فهزت رأسها قائلة : « لا يروج سوى كتب الاغاني والقصص ! » . وتناولت كتابا صغيرا من احد الادراج ، قائلة : « اليك كتاب حسن ! » . وقرأ ايفاريسست عنوانه ، فاذا به : « الراهبة ذات القميص ! »

ووجد - امام الحانوت المجاور - « فيليب دينماهى » ، الذى راح - وسط عطور ومساحيق المواطنة « سان جور » - يؤكد للتاجرة الحسنة حبه ، فى حنان واناقة اسلوب ، معا هذا اياها ان يرسمها ، سائلا اياها ان تلقاه لحظة فى حسيديقة (التويلرى) فى المساء . . وكان جميلا ، والاغراء ينساب من بين شفتيه ، ويطل من عينيه . فراحت المواطنة « سان جور » تصفى اليه فى صمت ، وقد فضت بصرها ، ميسالة الى ان تصدقه !

ولكى يالف المهام الخطيرة المنوطة به ، رأى المحسلف ان يشهد - من بين صفوف الجمهور - قضية كانت مطروحة امام القضاء . . فصعد السلم الذى جلس على درجاته حشد هائل من الناس - فى احد المدرجات - ونفذا الى القاعة القديمة التى كانت مخصصة لبرلمان باريس . وكانت القاعة غاصة ، وقد أوشك الناس ان يختنقوا فى سبيل مشاهدة محاكمة أحد القادة . ذلك لان « المؤتمر » كان فى تلك الايام - كما قال الشيخ بروتو - « يحنو حنو حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، فيحاكم القادة المهزومين بنوب القادة الخونة ، اذ ان هؤلاء لم يكونوا يعرضون انفسهم للمحاكمة ! » . وما كان ذلك - على ما اضاف بروتو - « لان

القائد المهزوم مجرم بطبيعة الحال ، اذ انه لا بد في معركة من قائد مهزوم . . وانما لانه ما من شيء أقوى مفعولا من الحكم باعدام قائد في اثارة الحمية في نفوس القادة الآخرين . . !

وكان قد مر بمقعد الاتهام عسدد من هؤلاء العسكريين ذوى الرؤوس الجوفاء ، الصلبة ، ممن أوتوا عقول العصفير في جماجم الثيران ! . . وكان القائد المائل للمحاكمة - في هذه المرة - لا يعرف عن خطط الحصار والقتال ، التى اشرف على تنفيذها ، أكثر مما كان يعرفه رجال القضاء الذين تولوا سؤاله ، فكان الاتهام والدفاع يخوضان في بيانات عدد الجنود ، وبيانات الاهداف ، وبيانات الذخائر ، وفي حركات الزحف ، وحركات الهجوم المضاد . . وكان حشــد المواطنين الذين راحوا يتتبعون هذه المناقشات المهمة اللانهائية ، يرون - خلف الرجل العسكرى الفبى - الوطن عاريا ، ممزقا ، يعانى الف سكرة من سكرات الموت . . ومن ثم راحوا - بالنظر وبالصوت - يحثون المحلفين الذين كانوا يجلسون على منصتهم ساكنين ، بأن يجعلوا حكمهم بمثابة ضربة قاضية لاعداء الجمهورية !

وشعر جاميلان - فى حماس - بأن ما ينبغى أن توجه اليه الضربة فى شخص هذا البائس ، انما هما الوحشان الفظيعان اللذان كانا ينهشــسان الوطن : التمرد ، والهزيمة . . وراح يفكر تفكيرا صادقا فى روية ، لمعرفة ما اذا كان هذا العسكرى بريئا او مدانا . ففى الوقت الذى استعادت فيه (فاندیه) شجاعته ، وفى الوقت الذى استسلمت فيه (تولون) للعدو ، وفى الوقت الذى تراجع فيه جيش (الرين) أمام غزاة (ماينس) ، وفى الوقت الذى كان فيه جيش الشمال - المتراجع - معرضا لأن ينهار تحت قبضة الامبراطوريين ،

والانجليز ، والهولنديين ، المسيطرين على (فالنسيين) . .
 في وقت كهذا ، تمس الحاجة الى تلقين القادة ان عليهم ان
 ينتصروا او يموتوا ! . . واذا رأى هذا العسكرى المسن ،
 الذى اذهله الموقف وشل حراكه ، والذى بدا - فى الجلسة
 - تائها بين خرائطه ، كما كان تائها فى سهول الشمال ، اثر
 جاميلان ان يغادر القاعة وهو يتحرق انفعالا ، حتى لا يصريح
 مع الجمهور : « الى الموت ! »

وفى اجتماع الجمعية العامة للقطاع ، تلقى المحلف الجديد
 التهاني ، من الرئيس «أوليفيه» ، الذى حمله على ان يقسم
 على مذبح البارنايين القديم - الذى تحول الى مذبح للوطن
 - ان يخلق باسم الانسانية المقدس كل ضعف بشرى فى
 فؤاده . فرفع جاميلان يده ، وأشهد على قسمه روح
 « مارا » العظيم ، شهيد الحرية ، الذى رفع تمثاله النصفى
 أخيرا - على أحد اعمدة المكان الذى كان كنيسة من قبل
 - فى مواجهة تمثال « لوبيلتييه » . ودوى فى المكان بعض
 التصفيق ممتازجا بهمهمات . وكان المجتمعون مهتاجين ،
 وقد تعالى - عند مدخل صحن الكنيسة السابقة - ضجيج
 فريق من أعضاء الجمعية مسلح بالمعاول . . فقال الرئيس :
 « من المجافاة للروح الجمهورية ، حمل الاسلحة فى اجتماع
 للاحرار ! » . وأمر بإيداع البنادق والمعاول فورا ، فى الفرفة
 التى كانت - فيما مضى - خزانة للمخلفات المقدسة .
 واحتل منبر الوعظ - الذى غدا منبرا للخطابة ، وتوج
 بقلنسوة حمراء - أحذب ذو عين ثاقبة وشفيتين منفرجتين ،
 هو المواطن « بوفيزاج » - عضو لجنة المراقبة - فقال :
 « ان القادة يخونوننا ، ويسلمون جيوشنا للعسكرو ، »

والامبراطوريون يدفعون بفرق من الفرسان حول (بيرون)
و (سان كنتان) ، كما أن (تولون) قد استسلمت للانجليز،
الذين انزلوا الى البر أربعة عشر ألفا من الرجال ..
أن أعداء الجمهورية يتآمرون في قلب ((الأوتور)) ذاته .. وأن
خطا لا حصر لها ، تدبر في العاصمة ، لتخليص ((النمساوية)).
وفي اللحظة التي اتحدث فيها ، تنتشر شائعة بأن ابن ((كاييه))
قد أفلت من سجن (التاجيل) ، ونقل مظفرا الى (سان كلو)،
رغبة في رفع عرش الطغيان من أجله . وأن غلاء الاقوات ،
وتدهو قيمة الاوراق المالية نتيجة للمناورات والدسائس
التي تدبر في داخل بلادنا ، وتحت أعيننا ، بوساطة عملاء
الاجانب .. فباسم السلام العام ، أناشد المواطن المحلف
بأن لا تأخذه رحمة بالتآمرين والخونة ! »

وما أن هبط عن المنبر ، حتى ارتفعت أصوات داخل
الاجتماع: « لتسقط المحكمة الثورية! .. ليسقط المعتدلون! » .
وصعد المنبر المواطن « ديبون » الكبير - النجار بميدان
تيونفيل - ببدانته وبشرته المتوردة ، قائلا انه كان تواقا الى
أن يوجه للمواطن المحلف سؤالا .. وطلب الى «جاميلان»
أن يوضح رايه في قضية انصار « بريسو » ، وأرملة «كاييه» .
وكان ايفاريسست خجولا ، لا يعرف كيف يتكلم في الاجتماعات
العامة . ولكن العزة الهمة ، فاذا به يقف شاحب الوجه ،
ويقول بصوت حاد : « اننى قاض ، ولست أتبع سوى ضميرى ،
فكل وعد أقطعه لكم سيكون مخالفا لواجبى . أن على أن
اتكلم في المحكمة ، وأن اصمت في كل ما عداها .. اننى لم
أعد أعرفكم ، فانى قاض ، والقاضى لا يعرف أصدقاء ولا
أعداء ! »

وحبذت الجمعية العامة قوله ، فقد كانت على غرار الجمعيات

طرا ، تضم عناصر متباينة ، فهي لذلك مذبذبة الراى متقلبة . ولكن المواطن « ديبون » انبرى للهجوم ، فماتان ليفقر لجاميلان أن تبوا منصبا كان هو يصبو اليه . فقال : « اننى أفهم ، بل وأقر مخاوف المواطن المختلف .. يقال أنه وطنى ، اذن فله وحده أن يرى ما اذا كان ضميره يسمح له بأن يتخذ لنفسه مكانا فى محكمة منيأة للقضاء على أعداء الجمهورية ، ومعقودة العزم على التكيل بهم .. انها مؤلفة من آثمين ينبغى على المواطن الصالح أن يتجاشاهم . ألم يثبت أن كثيرا من محلفى هذه المحكمة قد انساقوا للفساد بسبب ذهب المتهمين ، وان رئيسها « مونتانيه » قد أقدم على التزوير لكى ينقذ رأس الفتاة كوردای ؟ »

ودوت جنباى الصالة بتصفيق حاد لهذه الكلمات . وكانت التصفيقات الاخيرة لا تزال تتصاعد الى السقف حين ارتقى « فورتونيه تروبير » المنبر . وكان قد ازداد هزلا فى هذه الشهور الاخيرة ، فاذا عظام وجنتيه المحمرتين تبرزان تحت جلد وجهه الشاحب ، وقد احتقنت جفونه ، وبدأ انسانا عينيه كأنهما زجاجيان . وقال بصوت واهن متهدج بعض الشيء ، وان بدا ثاقبا بدرجة عجيبة : « أيها المواطنون ، لا سبيل الى الشك فى المحكمة الثورية ، دون الارتياح - فى الوقت ذاته - فى المؤتمر ولجنة الامن العام اللذين تمخضت عنهما . لقد أثار المواطن بوفيزاج مخاوفنا اذ ارانا أن الرئيس مونتانيه قد بدل سير المحاكمة لصالح احدى المذنبات . والذي لم يصفه الى هسدا - من أجل راحة نفوسنا - هو أن مونتانيه اعتقل وسجن بناء على اتهام وجهه اليه المدعى المسام .. اما من سبيل الى السهر على الامن العام دون لقاء الشبهات فى كل مكان ؟ .. ألم يعد فى المؤتمر

مواهب ولا فضائل ؟ . . أليس روبسبير ، وكوثون ، وسان جوست رجالا أمناء ؟ . . من العجيب ان تصدر اشد الاقوال عنفا عن افراد لم يشهدوا قط النضال من أجل الجمهورية ! . . وما كانوا ليقولوا غير ذلك اذا شاءوا ان ينفروا القلوب منها . أيها المواطنون ، قليلا من الضجيج ، ومزيذا من العمل للمصلحة العامة ! . . ان فرنسا لن تنقذ الا بالمدافع وليس بالصخب . ان نصف أقيية الحى لم تحفر بعد ، ولا يزال كثير من المواطنين يحتفظون بكميات كبيرة من البرونز . . اننا نذكر الاغنياء بأن الهبات التى يقدمونها للوطن هى خير كفالات لسلامتهم . اننى أعهد الى كرمكم ببنات ونساء الجنود الذين يحققون المجد عند الحدود ، وعلى ضفاف (اللوار) . لقد كان أحدهم ، وهو بومييه (اوجستان) من فرقة الفرسان الذى كان مساعدا لأمين المخازن بشارع أورشليم من قبل - أمام كوندية فى العاشر من مايو الماضى ، يقود الجياد ليسقيها ، فاذا به يتعرض لهجوم من ستة من الفرسان النمساويين ، فقتل اثنين منهم ، وساق الباقين أسرى . وانى لأطلب ان تعلن الجمعية العامة للقطاع ان بومييه (اوجستان) قد ادى واجبه ! »

وقوبلت هذه الخطبة بالتصفيق . وتفرق أعضاء الجمعية وهم يهتفون : « لتحى الجمهورية ! » . . واذا صار جاميلان وحيدا مع « تروبير » فى صحن الكنيسة ، صافحه قائلا : « شكرا . كيف حالك ؟ » . فأجاب تروبير وهو يسعل فيبصق دما فى منديله : « اننى فى خير حال . ان للجمهورية أعداء كثيرين فى الخارج وفى الداخل ، وان قطاعنا ليضم - فى حد ذاته - عددا كبيرا منهم . ان الامبراطوريات لا تصاغ بالصخب ، وانهمنا بالحديد

وبالقوانين ! .. عم مساء يا جاميلان ، فإن لدى خطابات
يجب أن تكتب ! »

ومضى - ومنديله على شفتيه - الى الحجرة التي كانت
خزانة المخطفات المقدسة من قبل .



أخذت المواطنة الارملة جاميلان - منذ صباح اليوم
التالى - وقارا بسيطا ، وكبرياء جمهورية ، وعزة تليق بأمر
مواطن محلف ، وقد أصبحت شسارتها أصلح وضعا على
شعرها .. كان الاحترام - الذى نشأت عليه - للقضاء ،
والاعجاب الذى تملكها منذ طفولتها للقضاسة ، والذى كان
يوحى اليها الوشاح والعباءة السابغة الجرارة والرهبة
القدسية التى طالما خالتها فى حياة أولئك الرجال الذين
نزل الله لهم على الأرض عما له من حق الحياة والموت ..
كل هذه المشاعر أحالت فى نظرها ذلك الابن الذى كانت -
حتى ذلك الحين - تراه لا يزال شبيها بالطفل ، الى شخص
جليل ، وقور ، ذى قداسة . وكانت - فى سذاجتها -
تتطلع الى استمرار العدالة خلال الثورة ، بيقين أقوى من
ذاك الذى كان مشروع المؤتمر يتطلعون به الى استمرار قيام
الدولة برغم تغير نظم الحكم . وكانت المحكمة الثورية
تتمثل لها مساوية فى الجلال لكافة الهيئات القضائية
القديمة التى تعلمت أن تحترمها .

- أما المواطن «بروتو» ، فقد أبدى للقاضى الشاب اهتماما
ممتزجا بدهشة واحترام متكلف .. وكالمواطنة الارملة
جاميلان ، كان يرى استمرار العدالة برغم تغير نظم الحكم ،
ولكنه - على العكس من هذه السيدة - كان يستهجن أن

تكون المحاكم الثورية مساوية لمحاكم العهد القديم . . واذ لم يكن يجزؤ على المجاهرة برأيه ، ولم يكن يطيق - في الوقت ذاته - أن يقنع بصمته ، فقد عمد الى توريثات فهمها جاميلان فهما صحيحا جعله يرتاب في وطنية الرجل الذي قال له ذات مرة : « ان المحكمة العظيمة التي عينت فيها اخيرا ، قد انشأها مجلس الشيوخ الفرنسى من أجل سلامة الجمهورية . وبقينا أنهما لفكرة فاضلة من شرعيننا أن يتيحوا محاكمات قضائية لأعدائهم . وانى لأرى هذا كرما ، ولكنى لا اراه من السياسة فى شىء . وكان الاجدر بهم - فيما يبدو لى - أن يضربوا فى الظلام من لا سبيل الى اصلاحهم من خصومهم ، وأن يكسبوا الآخرين بالعطايا والوعود . ان المحكمة المثالية هى التى تضرب ببطاء ، وتوقع من الضر أقل مما تحدث من الخوف . والذى ينقص محكماتكم هو أن تصالح أولئك الذين توقع الذعر فى نفوسهم ، وبهذا تجعل من فوزى المصالح والعواطف المتضاربة جماعة واحدة كبيرة قادرة على العمل المشترك ، ذات نفوذ وسلطان . . انكم تبذرون الخوف ، والخوف أكثر خلقا للأبطال من الشجاعة . فليقدر لك أيها المواطن جاميلان ، أن لا تشهد يوما تنصب عليك فيه سيول الخوف ! »

وكان الحفار « ديماهى » مغرقا - فى ذلك الأسبوع - فى غرام فتاة من فتيات قصر المساواة ، هى السمراء « فلورا » ، الفارعة القوام . ومع ذلك فقد وجد من وقته خمس دقائق ليهنئ زميله ويقول له أن تعيينه فى منصب كهذا تكريم عظيم للفنون الجميلة .

أما « ايلسودى » فكانت تكره كل شىء تورى ، دون أن تظن . ومع أنها كانت تخشى المهام العامة وتراها بمثابة

مزاحمت خطيرة قديرة على أن تنازعها قلب حبيبها ،
 إلا أن « ايلودى » الرقيقة راف لها أن تتقبل أن تكون حبيبة
 قاض يسعى الى الفصل فى أمور عظيمة . ومن ثم فان تعيين
 ايفاريسست للاضططلاع بمهام المحلف خلق حولها جوا
 سعيدا ، استمتعت به مشاعرها المرهفة . وأقبل المواطن
 « جان بليز » الى المرسوم - فى ميدان تيونفيل - فعانق
 المحلف بفيض من الحنان الناعم . فقد كان - ككل معارض
 للثورة - يبدى اعتبارا لسلطات الجمهورية، وكانت المحكمة
 الثورية تبث فيه احتراماً مبنياً على الخوف ، منذ اتهم
 بالفش فيما كان يورده للجيش من مؤن . . كان يرى نفسه
 شخصية ذات مظهر وذات اختلاط بكثير من الأمور التى
 لا تتيح له أن يتذوق السلامة كاملة . ومن ثم فقد لاح
 له المواطن جاميلان رجلاً جديراً بأن يستقل ، لاسيما وانه
 كان « مواطناً صالحاً ، صديقاً للقانون ! . . فبسط يده للرسم
 المحلف ، مبدياً الود والوطنية والتحمس للفنون وللحرية .
 فصافح جاميلان - بما أوتى من كرم النفس - الينس
 المبسوطة له .

وقال جان بليز : « ايها المواطن ايفاريسست جاميلان ،
 اننى أعتر بصداقتك ومواهبك ، وسأقلك غدا الى الريف
 لثمان وأربعين ساعة ، فترسم ، وتحدث معا ! » . وكان
 تاجر الصور ينظم - عدة مرات فى السنة - نزعات فى الريف
 للرسمين ، تستغرق يومين أو ثلاثة ، فيرسمون المناظر
 الطبيعية والاطلال تحت ارشاداته . واذ كان يدرك - بذكائه
 - ما قد يروق لجمهوره ، فقد كان يخرج من هذه
 الجولات بلوحات تستكمل فى معمله وتنحت بمهارة ، وتطبع
 بالألوان فتدر ربحاً طيباً . كان يصنع من تلك الرسوم

لوحات للابواب ونقوشاً كانت تلقى من الرواج ما يفوق
زخارف « أوبير روبير » .

ولقد رغب في أن يصطحب المواطن جاميلان - في هذه
المرّة - ليرسم له صورة منقولة عن الطبيعة . وهكذا رفع
مَنْصِبَ المحلف من مقام الرسّام لديه . وكان في الفريق رسّامان
آخران ، هما الحفار « ديماهي » - الذي كان يحذق
الرسم - والفنان المغمور « فيليب ديبوا » الذي كان يجيد
الرسم بأسلوب « روبير » . وقد رافقت المواطنة « ايلودي » ،
ومعها زميلتها المواطنة « هازار » ، الرسّامين كالعادة .
كما أن جان بليز - الذي كان يعرف كيف يجمع بين شواغل
مصالحة وحرصه على ملذاته - دعا الى تلك النزهة المواطنة
« تيفينان » ، ممثلة « الفودفيل » التي كانت من المعروف
انها أعز صديقاته !

الفصل العاشر



• في الساعة السابعة من صباح يوم السبت ، أقبل
المواطن «بليز» وقد ارتدى قلنسوة سوداء مثثة ، وصديري
وردي ، وسروالا (بنطلون) من الجلد ، وحذاءين أصفرين
ذوى قلابتين . فراح يدق بمقبض سوطه باب المرسى .
وكانت المواطنة الارملة جاميلان منهمكة في حديث برىء مع
المواطن « بروتو » ، بينما كان « ايفاريس » يعقد ربطسة
عنقه البيضاء العريضة امام قطعة صغيرة من مسرأة . .
وقالت المواطنة : « رحلة طيبة ياسيد بليز ! . . ولكن ،
مادمت تعتمون ان ترسموا مناظر طبيعية ، فاصطحبوا
السيد بروتو ، اذ انه يجيد الرسم » . فقال جان بليز :
« لا بأس ! . . تعال معنا يا مواطن بروتو ! » . وما أن اطمأن

بروتو الى انه لن يكون متطفلا ؛ حتى قبل الدعوة .. فقد كان ذا روح اجتماعية ؛ وكان محبا للمسرات .

وكانت المواطنة ((ايلودى)) قد صعدت الى الطابق الرابع لتقبل المواطنة الارملة جاميلان ، التى كانت تدعوها ((حماتها)) ! .. وكانت فى ثياب بيضاء - من رأسها الى قدمها - ويفوح منها عير الخزامى (اللافنده) .

وكانت فى انتظارهم مركبة مغلقة (برلين) عتيقة - من المركبات التى تستخدم فى الرحلات - يجبرها جوادان ، وقد ازبح سقفها . واحتلت المقعد الاوسط فيها « روز تينيان » و « جوليين هازار » . واتخذت « ايلودى » مجلسها الى اليسار ، جاعلة الممثلة الى يمينها ، و « جوليين » النحيلة بينهما . وجلس « بروتو » فى المقعد الخلفى ، مواجهها المواطنة « تيفينان » ، و « فيليب ديبوا » مواجهها المواطنة « هازار » ، و « ايفاريسست » مواجهها « ايلودى » . اما « فيليب ديباهى » ، فقد حظ جسده الرياضى على المقعد الامامى ، الى يسار الحوذى الذى راح يروى له ان الاشجار - فى احدى بلدان أمريكا - تثمر « سحج » بدلا من الفاكهة ! ولما كان المواطن - بليز فارسا بارعا ، فقد انطلق على صهوة جواد ، مستبقا القوم حتى يأمن العثر الذى تشبه المركبة . وما ان طوت العجلات طرق الضواحي المرصوفة ، حتى نسي المرتحلون همومهم ، وانقلبوا افكارهم ضاحكة ناعمة ، عند مرأى الحقول والاشجار والسماء . وخيل لايالودى انها انما خلقت لتربى الدجاج الى جوار ((ايفاريسست)) الجديز بأن يكون قاضيا يقر الامن فى قرية على ضفة نهر بالقرب من غابة .

واخذت اشجار الصفصاف الصغيرة تتراجع تباعا .

وعند مداخل القرى ، كانت الكلاب الصغيرة تهرع في تحسد نحو العربية ، وتنبح عند سيقان الجياد ، بينما كانت كلاب الصيد الكبيرة تنهض في تكاسل من مرقدها في عرض الطريق وتتباعده . . اما الدجاجات فراحت تتفرق وتجرى في عرض الطريق ، وهى مضطربة تنشد الفرار . . بينما كان الاوز يتباعد زرافات في بطء وثاقل . . والاطفال القسذرون المشعثون يتطلعون الى الركب وهو يمر .

وجاء الضحى حارا ، فاذا السماء صسحوة ، والارض تتحرف شوقا الى المطر . ووطأت اقدام القوم الارض على مقربة من (فيلجوييف) . وفيما كانوا يجوسون خلال القرية ، دخل « ديماهى » متجرا للفائهة ، ليستمرى نرزا يرفقه به عن المواطنين . واذا البائعة جميلة . فلم يفادر المتجر . وناداه « فيليب ديبوا » بالاسم الذى اطلقه عليه اصدقائه فيما بينهم : « باربارو ! . . باربارو ! » . . وعند سماع هذا الاسم البغيض ، ارهف المارة اسماعهم ، واطلت وجوه من كافة النواقد ، حتى اذا راوا « ديماهى » يخرج من متجر الفواكه ، تقدم منه شاب مليح ، فى معطف مفتوح يكشف عن رقبة متلعة فوق صدر قوى كصدور الرياضيين . وقد حمل على احد منكبيه سلة مليئة بالكرز ، وعلق فى طرف عتاس على المنكب الآخر - لفافة بهائية . وظن الرجل ان « ديماهى » هو الجيروندى صاحب الاسم - « باربارو » - بينما احاط به « الساتكيوت » متجهمين فى غير ترفق ، وسباقوه الى دار البلدية برغم احتجاجاته واستكازاته ، حتى ان الشيخ « بروتو » ، وجاميلان ، والشابات الثلاث لم يجرأوا على ان يشهدوا بان المواطن كان « فيليب ديماهى » الحفار الدقيق ، وانه كان يعقوبيا صادقا . . ثم قدر للمشقة فى امره ان

يبرز بطاقته المدنية التي كان يحملها بمصادفة غريبة ، اذ انه كان شديد الاهمال لمثل هذه الاشياء . وكان هذا هو الثمن الذي افتدى به نفسه ، فأفلت من أيدي القرويين المتحمسين دون ما خسائر اللهم الا ان أحد كمي قميصه - المصنوعين من الدانتيل - تهدل وفقد استواءه .. ولكنها كانت خسارة طفيفة ؛ على كل حال !.. وسرعان ما تلقى اعتذارات من رجال الحرس الوطنى ، الذين صافحوه بكل حرارة ، وراحوا يتحدثون عن استعدادهم لأن يحملوه الى دار البلدية فى اكرام واكبار !

واذ وجد نفسه طليقا محوطا بالمواطنات ايلودى ، وروز ، وجولين ، رمى « فيليب ديبوا » - الذى لم يكن يحبه ، وكان يشتهه فى انه خائن - بابتسامة ملؤها الاستهجان ، وقال له : « لو أنك ناديتنى بباربارو مرة أخرى ياديبوا ، فسأناديك بريسو .. وهو شاب ضئيل ، قمىء ، سخيف ، ذو شعر مضمخ بالدهون ، وبشرة تنضج بالزيت ، ويدين لزجتى اللمس .. ولن يرتاب أحد فى أنك بريسو السوء السمعة ، عدو الشعب .. ولن يحجم الجمهوريون - اذ يستنكرون منظرك ويشتمون منك - عن ان يشنقوك على أقرب مصباح .. أتسمع ؟ »

وأخذ المواطن « بليز » - الذى تحول يسقى جواده - يؤكد انه هو الذى سوى الموضوع ، بالرغم من انه كان جليا للجميع ان الأمر سوى بدونه .



وعادوا الى المركبة .. وفى الطريق ، زعم « ديماهى » للحوذى ان عددا كبيرا من سكان القمر ، سسقطوا فى ذاك السهل الذى كانوا يجتازونه - سهل (لوثجومو) - فى قديم

أما ايلودى فقد راحت تهنىء الوأطئنة ((تيفينان)) على قانسوتها المخملية الحمراء ، وثوبها الابيض . فى حين كانت المثلة الهزلية تطرى زينة زميلتيها ، وترشدهما الى الوسيلة التى تحسنان بها هذه الزينة فوق حسنها ، وذلك - فى رأيها - بالاقلال من الحلى . ومضت تقول : « ليس هناك ما هو أفضل من البساطة . هكذا تعلمنا من المسرح ، حيث يجب الاعتماد على الثياب فى اظهار كافة الحركات . . فى هذا وحده الجمال ، وليس فى أى شىء سواه ! » . فقالت ايلودى : « اصبت يا حسنائى ، فما من شىء اعظم قيمة فى الزينة من البساطة . وليس من قلة الذوق دائما اننا نرتدى الثياب القصيرة ، وانما نصدر فى ذلك أحيانا عن رغبة فى الاقتصاد » . ورحن يتكلمن فى اهتمام عن ازياء الخريف ، التى تمثلت فى ان يكون الثوب قطعة واحدة ، وان يكون قصيرا . فقالت تيفينان : « كم من نساء يشوهن أشكالهن باتباع «الموضة» . . انما ينبقى على كل امرأة ان ترتدى ما يلائمها ! » . فقال جاميلان : « ما من جمال قدر جمال الاقمشة التى تلتف حول الجسم ، والتى توشى بالزوائد الفضفاضة . اما كل ما هو مقصوص ومخيط (٥١) فبفيض ! »

وقوبلت هذه الاقوال - التى قد يحسن أن يتضمنها كتاب لوينكلمان (٥٢) لا أن تنطق بها شفتا رجل يتحدث الى باريسيات - بتجاهل ينطوى على استهجان . وقالت ايلودى : « انهم يعدون للشتاء اردية ضيقة من القماش الناعم ، فى فلورنسا وصقلية ، واردية ردينجوت على طراز

(٥١) يقصد أن تلتف المرأة بالقماش على طريقة الاغريقيات وعلى غرار « السارى » .

(٥٢) جوهان جواشيم وينكلمان : عالم آثار ألماني (١٧١٧ - ١٧٦٨) .

« زونيم » ، ملفوفة حول الخصر ، وتضم من أعلى بصديرية على الطراز التركي . فقالت تيفينان : « هذه وسيلة لستر الفقر ، وهى تباع جاهزة . اما أنا فلدى حائكة تعمل كأنها ملاك وليست باهظة الاجر ، ولست سوف ارسلها اليك يا عزيزتى ! » . . وتنقل الحديد بسرعة وخفة وتتابع ، ينشر ويبسط الاقمشة الراقية ، ما بين حرير فلورنسا الممودة ، والحرير البكىنى الفريد ، وحرير صقلية ، و « الكريشة » ، وحرير ناكين .

وراح الشيخ ((بروتو)) يتمثل - وهو ينصت فى أسى ملتاع - تلك الاقمشة التى كانت زينة الموسم ، وقد التفت حول أجسام فاتنة . . (مودات) لم تكن تدوم طويلا ، ولكنها لا تلبث ان تبعث من جديد ، على مر الزمن ، كالزهور فى الحقول . وانغرو رقت عيناه - وهو يجيئها بين الشابات الثلاث وزهور الترنجان وشقائق النعمان - بدموع يشوبها ابتسام .

ويلفوا (اورانجى) حوالى الساعة التاسعة ، فهبطوا فندق « ديلاكوش » ، حيث اعتاد الزوجان « بواترين » ان يستقبلا القادمين على الاقدام ، أو على الجياد . وبسط المواطن « بليز » - الذى كان قد جدد زينته - يده الى المواطنين . وبعد أن دبر القوم غداءهم لوقت الظهر ، ساروا على الاقدام عبر الحقول الى ملتقى نهرى (لوجر) و (ليفيت) ، تتقدمهم صناديقهم ، وعليهم ، وحوامل لوحاتهم ، ومظلاتهم . . وسعوا الى تلك الاماكن الساحرة ، حيث يتكشف سهل (لونجومو) الاخضر للابصار ، يحف به نهر (السين) وغابة (سانت جنيفيف) .
وراح جان بليز - الذى كان يقود فريق الفنانين - يتبادل

مع رجل المال السابق - بروتو - موضوعات خفيفة مازحة،
ورد فيها - دون ترتيب ولا تنسيق - ذكر فربوكيه
لوجنيرو ، وكاترين كيسو التى كانت تتجسر فى اللوحات ،
والآنسات شودرون ، والساحر جاليشيه ، واللوحات الفنية
التي رسمها فنانون أحدث عهدا من هؤلاء .. مثل كادييه -
روسيل ، ومدام انجو .

**وأحس ايفاريسست - وقد استولى عليه حب مفاجيء
للطبيعة - بأن عينيه تمتلئان بالدموع ، اذ رأى الحصان
محزوما .. وزخر قلبه بأحلام الوئام والمحبة .. أما «ديماهى»
فراح يتفح فى شعور المواطنين حبات الهندباء الخفيفة . واذا
كانت ثلاثهن يملن بذوق المتحضرات الى باقات الزهور ،
فقد أخذن يجمعن أعواد نبات «سكر الحوت» - الذى تضم
زهوره سنابل ملتفة حول تاجها - وأعواد نبات «قبضة
الجرس» الذى يحمل طبقات مدلاة من الزنايق الشبيهة
بالنواقيس الصغيرة الرقيقة ، وأغصانا من نبات «هديل
الحمام» العبق ، فى لون البرد الناصع .. وأعواد الخمان ،
والنعناع ، و «النبات ذى الالف ورقة» ، وكافة الزهور
الخلوية التى خلفها الصيف المحتضر . ولما كان «جان -
جاك» (٥٣) قد وضع علم النبات بين الطرائف التى تتعشقها
فتيات المدن ، فقد كانت ثلاثهن على دراية بالزهور واسمائها
وغرامها ! .. واذا راحت بتلات الزهور الرقيقة - وقد ايسسها
الجفاف - تتهاوى بين ذراعى ايلودى ثم تتساقط كالطرر
على قدميها ، ندت عن المواطنة زفرة ، وهى تقول : «هاهى
ذى الزهور تحتضر !»**



(٥٣) جان - جاك روسو ، الذى عرف بشنة شغفه بالطبيعة والنبات .

وأقبل كل على العمل ، سعيًا وراء التعبير عن الطبيعة التي كانت تطالعهم . بيد ان كلا منهم كان يراها بطريقة خاصة به . فاستفرق « فيليب ديبوا » - بعض الوقت - في اتساع طريقة « أوبر روبير » ، وهو يرسم مزرعة مهجورة ، وأشجارا ذابلة ، وجدولا جف مأؤه .. وراح « ايفاريسست جاميلان » يرسم مناظر الفراريج (الكتاكيت) المنتشرة على ضفة نهر (ليفيت) .. اما « فيليب ديفاهي » فقد اتخذ مريضه أمام برج للحمام ، وراح يرسم على طريقة « كالو » و « دوبليسي » الملتوية .. واخذ الشيخ « بروتو » - الذي حذق تقليد أسلوب الفلاتندر - يرسم بقرة بعناية .. وانهمكت « ايلودي » في رسم كوخ من القش ، بينما جعلت صديقتها « جوليين » - التي كانت ابنة تاجر للالوان - من نفسها حاملة ألوان لها . والتف حولها الاطفال ، وراحوا يرمقونها وهي تمزج الالوان .. فأنسستهم يومهم ، وهي تسميهم « البعوض » ، وتمنحهم قطع الحلوى .

اما المواطنة « تيفينان » ، فقد راحت - كلما وجدت بينهم اطفالا على قدر من الجمال - تغسل لهم وجوههم ، وتقبلهم ، وتبث الزهور في شعورهم ، وهي تحتضنهم في شجن حنون لأنها لم تؤت نعمة انجاب الاطفال .. ولأنها - في الوقت ذاته - شاءت ان تظهر بمظهر التي تغدق الحنان ، وان تمارس فنها في اصطناع المناظر لنفسها وسسط جمع الاطفال ! ..

وما لبثت ان ألقت نفسها وحيدة : فلم تعد الى الرسم ، ولا هي نسقت شعرها ، بل شغلت باستذكار أحد ادوارها ، وبالبكاء .. ثم تحولت تنتقل من واحد الى آخر - وكراستها في يدها - كأنها طيف خفيف فاتن . وبعد ان كانت الاناث

يقلن عنها : « لا لون ، ولا شكل ، ولا قوام ، ولا صوت ! » ،
 إذا بها تملأ الفضاء حركة ، ولونا ، وانسجاما . وإذا بها
 بنحوها ، وجمالها . وتراخيها ، وعدم اعترافها بالتعب .
 تغدو بهجة الرحلة . . كانت ذات مزاج غير متزن ولكنه - في
 الوقت ذاته - مرح دائما . . وكانت سريعة الحساسية
 والانفعال ، ولكنها - مع ذلك - لينة ، سهلة ، سلسلة القياد
 . . وكانت لغتها قدرة ولكنها مغلفة دائما في لهجة مؤدبة . .
 كانت متمجرفة ، ومتواضعة . . صادقة ، وزائفة ، وعذبة
 . . وإذا لم يكن قد قرر لروز تيفينان ان توفق في سوس
 امورها ، وان تغدو ربة معبودة ، فما ذلك الا لأن باريس
 كانت في أسوأ أوقاتها ، فلا بخور ، ولا معابد ، ولا صلوات ! .
 وكانت المواطنة « بليز » - التي اعتادت أن تتغامز اذا تحدثت
 عنها ، وان تدعوها « امرأة أبيها » - لا تمالك حين تراها ان
 تضي عليها المجاملات والتلطف .

وكانت مسرحية « طقوس عيد الزيارة » قد قرئت على
 « فيدو » ، وحظيت « روز » بدور غير متكلف . . فقد كانت
 تسعى وتتبع كل ما هو طبيعي . غير ان « مسرح الأمة »
 كان قد اغلق ، واحيل ممثلوه الى مسرحى « ماديلونيت »
 و « يلاجى » ، فصاحت « تيفينان » ، وهى ترفع الى
 السماء عينيها الجميلتين المفعمتين بالاستنكار : « أهذه هى
 الحرية ؟ » ، فقال جاميلان : « ان ممثلى « مسرح الأمة »
 أرستقراطيون ، ومسرحية المواطن فرانسوا مليئة بالاسف
 بامتيازات طبقة الاشراف . »

ف قالت تيفينان : « ايها السادة . . الا تعسفون كيف
 تستمعون لغير اولئك الذين يتملقونكم ؟ »



أما فيليب ديبوا ، وبروتو - اللذان كانا بعبيدين بعض
الشيء ، في مؤخرة القوم - فقد راحا يتحسنان عن روما ،
التي ذهب اليها كل منهما . . احدهما في سنة ٧٢ ، والآخر
حوالي الايام الاخيرة للاكاديمية . واسترجع « ديبوا »
للشيخ « بروتو » ذكرى الاميرة « موندراجون » وهو يسميها
نجموا ، دون ان يفطن الكونت « آلتيري » ، الذي كان
يلازمها ملازمة الظل . . ولم يفطن ان يذكر انه دعى للعشاء
لدى الكردينال « بيرنى » ، وان هذا كان اكرم مضيف في
في العالم .

فقال بروتو : « لقد عرفتَه ، ويوسسى ان اقول — دون
مبالغة — اننى كنت من اقرب معارفه اليه ، فى فتنة من
الزمن . . وكان يحب التردد على اوساط الرعاع . . كان
رجلا لطيفا ، يشغف بالحديث عن القصص الخرافية . وكان
فى اصبعه من الفلسفة الحكيمة اكثر مما فى رؤوس زعمائكم
اليحاقبة ، الذين يريدون ان يثبتوا فينا الفضيلة وعبادة
القانون . . وبقينا اننى احب رجالنا الدينيين الذين لا يعرفون
ما يقولون ولا ما يفعلون ، اكثر مما احب اولئك المتهوسسين
الذين يقلبون القوانين راسا على عقب ، والذين يعمدون الى

قطع رؤوسنا على « الجبلوتين » ، ليجعلوا منا قوما فاضلين وحكماء ، وليحملونا على ان نعبس « الذات العليا » التي صاغتهم على صورتها !.. في الايام الغابرة ، كنت ألقن الصلاة في كنيسة بالجزر ، بوساطة قس اشبه بالشيطان الشرير ، اعتاد ان يقبول بعد الشراب : « **احمنا من ان نسيء الظن بالهيادين ، فنحن قساوسة نعيش بينهم بكرامتنا !** » .. لنقر يا سيدى بأن هذا الدعاء الساذج ، له معانى سلبية بالنسبة للحكومة . وخلق بهذا القس ان يرد الى هنا ويحكم الناس على ما هم عليه ، وليس على ما ينبغى ان يكونوا . واقتربت « تيفينان » من « بروتو » السكهل .. كانت تعرف انه كانت لهذا الرجل يوما حاشية كبيرة ، وان خياله كان يستغل هذه الذكرى اللامعة لاضفاء رواء على ما اصبحت فيه هذا المالى السابق من فقير فى حاضره ، فيخفف من تقديره لهوانه ، ويراه أمرا عاما ناجما عن الافلاس العام . وراحت تتأمله فى فضول لا يخلو من الاحترام ، كحطام لواحد من الاغنياء المفرطى الثراء ، الذين كانوا يلاحقون بتنهداتهم الممثلات اللائى سبقنها . وما لبثت أحوال هذا الرجل الطيب ذى « الردينجوت » الحائل ان اعجبتها ، فقالت له :

— من المعروف عنك يا مسيو بروتو ، أنك كنت — فيما مضى — تتألق فى متنزه جميل ، فى الليالى المشرقة بالاضواء ، وبين الرياحين ، مع الممثلات والراقصات ، بينما ينبعث عزف المزامير والكمان من بعد . وأسفاه !.. ألم تكن مهابوداتك من ربّات « الاوبرا » و « الكوميدي فرانسيز » أجمل منا نحن الممثلات الصغيرات البائسات فى المسرح القومى !

فأجاب بروتو : « لاتصدقنى هذا يا آنسة ، واعلمى أنه لو تسنى — فى ذلك الوقت — لقاء واحدة مثلك ، لقدر لها ان

تخطر في جلال وسلطان ، وحيدة ، وبلا غريمة ، في ذلك المتنزه
الذي تبالفين في تصويره ! »



كان فندق « لاكلوش » — أي الناقوس — عتيقا ، يتدلى
فرع من شجر « الآس » البري على الباب المخصص لمروء
المركبات به . وكان هذا الباب يفضي الى فناء دائم الرطوبة ،
تسعى فيه الدواجن ، ويقوم المبنى في نهايته ، ولما من طابق
أرضي ، يعلوه طابق واحد آخر ، يتوجه سقف محدودب عال
من القرميد ، بينما تتوارى جدرانه تحت فروع أشجار
قديمة أثقلتها الورود . . . والى اليمين ، كانت ثمة أشجار
سامقة ، تشرئب رؤوسها فوق الطرف الذي يقوم فيه
سياج الحديد . . . أما الى اليسار ، فكانت ثمة حظيرة للخيل ،
يقوم خارجها معلق ومخزن للفلال من أعمدة خشبية متعارضة .
والى الجدار ، أسند سلم متنقل . كما احتشدت تحت سقفة
— في هذا الجانب — أدوات زراعية وجلوع أشجار مجتثة . .
وفوق مركبة عتيقة ، وقف ديك أبيض يراقب دجاجاته .
وهنا كان الفناء مغلقا بخطائر للماشية ، التي قام أمامها كوم
من السماد العضوى كأنه التل المهيب ، برزت من خلفه — في
تلك الساعة — فتاة تحمل مذراة ، وقد أوتيت بسطة في
العرض أكثر مما أوتيت في الطول ، وشعرا بلون التبن .
وكان روث الماشية السبائل يملأ خفيها المصنوعين من
الخشب . ويفرق قدميها العاريتين ، اللتين كان كعباهما
يبرزان — من حين الى آخر — في اصفرار « الكركم » .
وكانت جونلتها المملمة الاطراف ، تكشف عن قدارة بطنى
ساقها القصيرتين المكتنزتين . . . وما أن رأى ((فيليب ديماهى))

هذه الفتاة ، حتى دهش وراح يعجب من عبث الطبيعة التي
أنشأتها بهذه الضخامة ، بينما صاح بها صاحب الفندق :
« ها يا لاترونش . . اذهبي فاجلبى ماء ! »

واستدارت ، فأبدت وجهها أرجوانى اللون ، ذا فم واسع
يتسع لحاملة الألوان « الباليته » . وما كان لقرن ثور أن
يثلم صف الاسنان القوية التي تبدت في ذلك الفم ، وهي
تضحك ، ومذراتها على كتفها ، وذراعاها اللتان لوحتهما
الشمس بسمرة قاتمة ، تلوحان في ضخامة الفخدين .

وكانت المائدة قد مدت في قاعة الطابق الاسفل ، وعليها
الطيور التي صادتها البنادق العتيقة ، وقد شويت أتم شواء
تحت ناقوس المدخنة . وكانت القاعة تتجاوز العشرين قدما
طولا ، وقد طليت جدرانها بالجير الأبيض . ولم يكن يضيؤها
سوى زجاج الباب المخضوض اللون ، وسوى نافذة وحيدة ،
تحف بها الورود ، وإلى جوارها كانت الجدة العجوز تدير
عجلتها (٥٤) . وكانت ترتدى فوق رأسها قلنسوة ذات
حواف عريضة من « الدانتيل » التي يرجع طرازها الى عهد
الوصاية (٥٥) . وبدت أصابع يدها عجفاء ، مغبزة ، وهي
تمسك بالمغزل . . وقد راح الذباب يقف على حواف
أجفانها فلا تهشه . . كانت قد رأت لويس الرابع عشر يمر في
مركبته ، وهي بعد طفلة على ذراعى أمها ! . . وقد أنقضت
ستون سنة منذ ذهبت الى باريس ، فراحت تروى - في
صوت واهن ولكنه أغن رخيم - للشابات الثلاث اللائي
وقفن أمامها ، أنها رأت دار البلدية ، والتويلرى ، والكنيسة

(٥٤) طراز قديم من المغازل ، له عجلة يدار بها .

(٥٥) عهد « فيليب دورليان » ، قبيل بلوغ لويس الخامس عشر الرشيد

(١٧١٥ - ١٧٢٢) .

السامرية . . . وأنها - بينما كانت تجتاز الجسر الملكي (بون رويال) - رأت سفينة كانت محملة بالتفاح المرسل الى سوق (ميل) ، وإذا بها تتفكك فينسب التفاح منها الى الماء، وينتثر في النهر ، كأنه يقع حمراء .

وأحيطت علما بالتغيرات التي طرأت حديثا على المملكة .
لأسيما الشقاق بين القساوسة الذين أقسموا اليمين ،
وأولئك الذين لم يقسموا . كما علمت بأن حروبا قد نشبت ،
ومجاعات تفشت ، وعلامات ظهرت في السماء (٥٦) . . . وأبت
أن تصدق أن الملك قد مات ، بل قالت أن هناك من هربه
خفية . وساق أمام الجلاد رجلا من عامة الشعب بدلا منه .

وعند قدمي الجدة ، كان آخر وليد من آل « بواترين » -
وهو « جانو » - يرقد في مهد خفيف . . . معتلا إذ بدأت أسنانه
تنبت . ورفعت « تيفينان » المهد المصنوع من الخيزران ،
وأبتسمت للطفل ، الذي كان يئن بصوت واهن أثقلته الحمى
والمفص . ولا بد أن المرض كان قد برح به ، إذ كان الطبيب
المواطن « بيلبور » قد استدعى ، ولكنه كان - في الواقع -
نائبا في مجلس الوفاق ، فلم يكن يحفل بعيادة أحد .

وشهرت المواطنة « (تيفينان) » - وهي تذكر ما كان يوها
يمارسه يوما - بأنها في الجو الذي ألفته ، فلم ترضها الطريقة
التي غسلت بها « (الأترونش) » الاوعية ، وأقبلت تغسل الصحاف
والأكواب والملاعق . وبينما كانت المواطنة « بواترين » تطهو
الحساء - الذي كانت تتقنه كخير طاهية في فندق - أخذت
« ايلودي » تقطع رغيفا من الخبز - وزنه ربع رطل - الى
شرائح ، وهو بعد ساخن . وإذا بها جاميلان تفعل ذلك ،

(٥٦) انتشرت الشائعات الخرافية - في أوائل الثورة - بين الجبهة ، عن
ظهور العلامات السماوية التي يقال انها تنذر بنهاية العالم .

قال لها : « قرأت منذ بضعة أيام ، في كتاب من تأليف شاب الماني نسيت اسمه ، وقد ترجم في لفسة فرنسية جيدة جدا . . وفي هذا الكتاب فتاة حسناء تدعى « شارلوت » تقطع الخبز - مثلك - يا ايلودى . . كانت مثلك تقطعه في رشاقة وجمال ، جعلها الشاب « فيرتر » يهواها اذ رآها . »

فسأله ايلودى : « وهل انتهى الامر بالزواج ؟ »

فأجاب ايفاريست : « كلا ، بل أنتهت تلك القصة بوفاة قاسية لفيرتر . »

وأقبلوا على الغداء بنهم ، اذ كان الجوع قد برح بهم . ولكن الاكل كان متوسطا ، مما دعا « جان بليز » الى التذمر ، فقد اعتاد أن يعنى بقمه ، وأن يجعل من العناية بالطعام الجيد قاعدة للحياة . . وليس من شك في أن القحط العام هو الذى حفزه على أن يصوغ نهمه في نظام يحرص على أتباعه . فان الثورة كانت قد قلبت القدر (٥٧) في كل بيت . فلم يعد للعامة من المواطنين ما تمضغه أسنانهم . أما المقتدرون - ممن على شاكلة جان بليز - الذين كانت أرباحهم تنصتخهم على حساب الشقاء العام ، فكانوا يسهون الى المطاعم ، حيث كانوا يعرضون افتنائهم في ملء بطونهم !

أما « بروتو » الذى راح في العام الثانى للحرية يعيش على الكستناء وفتات الخبز ، فقد ذكره الطعام بأنه كان يتناول عشاءه في مطعم « جريمو ديلادينير » ، عند مدخل (الشانزليزيه) . واذ عجز عن ذكر اسم الطبق الشهى ، أمام كرتب المرأة « بواترين » المقلنى بالدهن ، تحول عن تذكر وصفات الطهو ، والأصناف الدسمة من الغداء ، وأعلن - على غرار جاميلان - أن الجمهورى يزدرى لذات المائدة . ثم

طبق الحكيم المكتهل ؛ المولع بالتحف القديمة، يصف للاسبرطى الشاب الطريقة الصحيحة لصنع حساء من الدقيق الاسمر .



وبعد الفداء ، كلف « جان بليز » - الذى لم يكن ينسى الامور الجدية - « اكاديميته » المتنقلة، بعمل رسوم تخطيطية ومشروعات لوحات للفندق الريفى الذى اعتبره - فيما كان عليه من تهدم - شاعريا . واذا قبل « فيليب ديماهى » و « فيليب دييوا » على رسم الحظائر ، ذهبت « ترونش » تقدم الطعام الى الخنازير . واقترب المواطن « يلبور » ، طبيب الصحة ، الذى انقلت - فى تلك الاثناء - من قاعة الطابق الاسفل ، حيث كان قد قام ببعض الخدمات الصحية ، لبواترين الوليد . . وبعد أن اطرى مواهبهم التى تشرف الامة بأسرها ، أشار الى « ترونش » وقد احاطت بها الخنازير ، وقال :

- أترون هذا المخلوق ؟ . . أنها ليست فتاة - كما قد تحسبونها - وإنما هى فتاتان . وتأكدوا اننى جاد فى معنى ما أقوله ! . . فقد أدهشتنى ضخامة حجم عظام ظهرها ، ففحصتها ، وتبينت أن معظم عظام الظهر عندها مزدوجة ، وفى كل فخذ ، توجد كرتان ملتحمتان . . وعند كل كتف عظمتان للساعد . كذلك أوتيت عضلات مزدوجة . فهى - فى رأيى - مخلوقان ملتحمان التحاما دقيقا ، أو - بتعبير آخر - اندمجا معا . وهذه حال طريفة ، وقد ذكرتها للسيد « سانت هيلير » ، الذى أقرنى فيما علمت . أن الذى ترونه أمامكم مسخا ايها المواطنون . . والقسم هنا يسمونها « لاترونش » ، وجدير بهم أن يقولوا « ليه ترونش » ، فهى

اثنان (٥٨) ، أن للطبيعة نزوات غريبة . . عموا مساء أيها
المواطنون الرسامون ، فستهب عاصفة الليلة !
وبعد أن تناول أعضاء « أكاديمية » بليز العشاء على ضوء
الشموع ، التفوا في فناء الفندق - بصحبة ولد وفتاة من
آل بواترين - ليمارسوا لعبة « كولان - مايار » (٥٩) ، التي
يبدل فيها الشبان والشابات جهدا تبرره سنهم بدرجة
لا تدع مجالا للتساؤل عما إذا كان ما شاب العهد من عنف
وعدم طمأنينة لم ينل من روحهم . واذ أسدل الظلام ستاره ،
اقترح « جان بليز » عليهم أن ينتقلوا إلى بهو الطابق الأسفل ،
فيتسلوا ببعض الألعاب البريئة . ودعتهم « ايلودي » إلى
لعبة « صيد القلب » ، فقبل الجمع اقتراحها ، وقام « فيليب
هيماهي » - تحت إرشاد الفتاة - برسم سبعة قلوب
بالطباشير على قطع الاثاث والجدران . . أي أن عدد القلوب
كان أقل من عدد اللاعبين واحدا ، وراحوا يرقصون في حلقة ،
حتى إذا صدرت عن « ايلودي » إشارة ، هرع كل منهم
ليضع يده على أحد القلوب ، وفي الجولة الأولى ، وجد جاميلان
كل القلوب مشغولة ، إذ كان شارد الذهن ، غير منسجم مع
الجو المحيط به . . فقدم - رهنا - مديته التي أشتراها
بستة (« سو ») ، في سوق (سان جيرمان) ، والتي اعتاد أن
يقطع بها الخبز لأمه المسكينة . وعادوا للعب ، فتخلف -
دورا بعد دور - كل من بليز ، وايلودي ، وبروتو ، وتيفينان .
وقدم كل منهم رهنا : خاتما ، وحقيبة يد ، وكتابا مفلسا

(٥٨) « لا » أداة التعريف للمؤنث في اللغة الفرنسية ، و « ليه » للمثنى
والجمع . وعلى هذا « لا ترونش » أي الفتاة ترونش ، و « ليه ترونش »
أي الفتاتان ترونش .

(٥٩) لعبة تعرف باسم « القطة العمياء » ، وفيها تعصب عينا أحسد
اللاعبين ، ويطلب بتعقب الآخرين .

بالجلد الثمين ، وسوارا ، ثم وضعت الرهائن تباعا على
ركبتى « ايلودى » ، وراح كل - فى سبيل استرداد
رهينته - يعرض ميزاتة الاجتماعية ، او ينشد أغنية ،
او يلقي قصيدة . فردد « بروو » حديث شفيع فرنسا ،
فى انشودة « العذراء » الاولى :

((أنا دنيس ، ومهنتى قديس .. وأحب أقال ...))
أما المواطن بليز ، الذى لم يكن أقل منه علما ، فقد بادر
بترديد جواب « ريشموند » :

((سيدى القديس ، ليست مبارحة العالم السداوى
بالقصاص ...))

وما لبث الجميع أن تحولوا يرددون - باستعذاب -
روائع « اريوست » بالفرنسية (٦٠) ، فاذا أكثر الرجال
وقارا يتسم لغراميات « جان » و « دونوا » ، ومغامرات
« أنييه » و « مونروز » ، وكان كل المثقفين يحفظون عن
ظهر قلب مواطن الجمال فى تلك القصائد الزاخرة بالفلسفة
وبكل ما يهفو بالمشاعر .. حتى « ايفارست جاميلان » -
ذو المزاج الصارم - ألقى فى سبيل استرداد مدينته من
« ايلودى » : الايات الخاصة بدخول جريسبوردون الى
الجحيم ، عن طيب خاطر . وغنت المواطنة « تيفينان » - بلون
موسيقى تصاحبها - قصة « نينا » : ((عندما يعود الحبيب ...))
وفى تلك الأثناء ، كان ديماهى مشغول البال .. كان - فى
تلك الساعة - مشغولا بحب النسوة الثلاث اللاتى لعب
معهن ، فراح يرمى كلا منهن بنظرات ملتهبة وناعمة ، فى آن
واحد .. كان يحب « تيفينان » لجمالها ، ورقة أعطافها ،

(٦٠) الشاعر الايطالى لودفيكو اريستو (١٤٧٤ - ١٥٣٣) ، كان من
أشهر شعراء النهضة ، وعرف بسعة الخيال ، وسامة الالهام ، وجزالة
اللفظ .

والمسامها بفنّها ؛ ونظراتها ، وصوتها الذى كان ينفذ الى
 الفؤاد .. وكان يحب فى « ايلودى » طبيعتها الفياضنة ،
 الفنية ، المفاذقة .. أما جوليسين هازار ، فقد أحبها - برغم
 شعرها الحائل اللون ، وأهدابها البيضاء ، ويقع الكلف
 (النمش) ، وقوامها الهزيل - لأنها كانت على شاكلة «دوتوا»
 التى تحدث عنها « فولتير » فى قصيدة « العذراء » ..
 كانت على استعداد دائم ، لأن تبدى ببسختائها - لأقل
 الناس جمالا ، نفحة من الحب .. ولأنها كانت تبدو أقل
 النساء اكترائا ، وأشدهن مناعة ، فى آن واحد !

واذ كان « ديماهى » خلوا من كل غرور ، فانه لم يطمئن
 يوما الى أنه موضع رضى وقبول ، كما أنه لم يطمئن يوما
 الى أنه موضع استهجان ونفور .. لذلك كان ينتهز كل فرصة
 ليتقرب ، غير حافل بالنتيجة . فاستغل الفترات السعيدة
 التى كان يتماس فيها مع كل منهن اثناء اللعب ، فألقى ببضع
 كلمات غزلية رقيقة الى « تيفينان » ، لم تفضب لها ولكنها
 لم تقو على الرد تحت نظرات المواطن « جان بليز » المفعمة
 بالفيرة .. وكان أشد وجدا فى حديثه الى المواطنة « ايلودى » ،
 التى كان يعرف ارتباطها بجاميلان ، ولكنه لم يكن متعنتا
 يصر على أن يكون قلبها له وحده .. ولم تملك « ايلودى »
 أن تحبه ، ولكنها كانت تراه جميلا ، ولم تنجح قط فى اخفاء
 شعورها هذا عنه .. وأخيرا ، رفع صوته المؤثر الى أذن
 المواطنة « هازار » ، فتلقته بجو من الحيرة والذهول ، كان
 خليقا بأن يوحى بانصياع متورط ، أكثر مما يوحى بعدم
 اكتراث حزين . ومن ثم لم يخطر ببال « ديماهى » قط أنها
 لم تكن تحفل به !



وتم يكن في الفندق الريفى غير غرفتين للنوم ، كلتاهما في الطابق الاول ، وتجمعهما ردهة واحدة . وكانت اليسرى أجملهما ، وقد كسيت بورق نقشت عليه زهور ، وازدانت بمرآة تعرض اطارها المذهب لمدوان الذباب منذ طفولة لريس الخامس عشر . وفي هذه الحجرة ، تحت سماء من الحرير الهندى ، قام سريران مزودان بوسائد من الريش ، وألحفة من الزغب الناعم . . وقد خصصت هذه الحجرة للوطنات الثلاث .

واذ حانت ساعة النوم ، أمسك كل من « ديماهى » والمواطنة « هازار » شمعدانا في يده ، وتبادلا تحية المساء في الردهة . ودفع الحفار العاشق الى ابنة تاجر الالوان ، بقصاصة الح عليها فيها بأن تلحق به . بعد أن ينام الجميع - في مخزن المحصولات الغذائية - الذى كان يعاو مخدع المواطنات . . وكان بذكائه وبعد نظره قد درس - أثناء النهار - المكان ، وارتاد المخزن الذى كان مليئا بحزم البصل ، وبالفواكه التى كانت تجفف تحت خلايا النحل ، وجرار العسل . . وقد لمح - هناك - سريرا متداعيا ، غير مستعمل ، بدت له عليه شبه حشية بالية ، تسكنها البراغيث !

وكانت في مواجهة مخدع المواطنات غرفة ذات ثلاثة أسرة صغيرة ، كان على المواطنين أن يفرشوها كما يعن لهم . ولكن « هاتو » - الذى كان متقشفا - سعى الى مخزن الغلال ، فنام في أكناف التبن . أما « جان بليز » فقصد اختفى . . وسه عان ما نام ديبوا وجاميلان . أما « ديماهى » ، فقصد استلقى على سرير . . حتى اذا غمر صمت الليل الدار - كأنه ماء ناعس - نهض الحفار وتسلىق السلم الخشبي ، الذى راح يثز تحت قدميه الحافيتين . وكان مخزن المحصولات مواربا ، تفوح من داخله حرارة خانقة وروائح عفنة منبعثة

من الثمار الداوية . وعلى سرير متداع ؛ كانت « لاترونش »
نائمة ، فغرة الفم ، وقد انحسر قميصها عن ساقبيها
المعوجتين . وكانت ضخمة الجثة . . وظلال كوة في الجدار ،
كان شعاع من نور القمر ، يغمر بشرتها بمزيج من الازورد
والفضة ، فاذا بها تتألق بالشباب والنضارة !!

وارتمى « ديماهى » عليها ، فاستيقظت بغتة ، وتولاهما
الجزع فصرخت ، ولكنها لم تكد تفهم بغيته حتى : طمأنت ،
ولم تبد دهشة ولا معارضة ، بل تظاهرت بالاستسلام
لشبه اغواءة ، كانت تسمح لها بأن تعي ما يحدث ؛ فتبدي
له شيئاً من العاطفة . .

وعاد « ديماهى » الى غرفته ، حيث استغرق في نوم
هادىء ، عميق ، حتى النهار .



وبعد أن قضى أعضاء « الاكاديمية » سحابة اليوم التالى
فى العمل ، تاهبوا للعودة الى باريس . وعندما دفع « جار
بليز » الحساب بالعملة الورقية ، راح المواطن « بواترين »
يسى الحرمان من العملة « الفضية المربعة » ، ويتعهد بأن
يهب سمعة جميلة لمن يرد العملات الذهبية الى التعامل .
ثم قدم الزهور الى المواطنين . وبأمر منه ، وقفت
« لاترونش » على سلم خشبى متنقل ، وقد انتعلت
شبقابين ، ورفعت أطراف ثوبها ، فكشفت للضوء عن
فخذيها الورديتين المتسختين ، وراحت تقطع الورد من
شجار الورد الشائكة ، دون كلل . وأخذت الورد تستاب
من بين يديها كالطر ، ثم كالسيل ، ثم كالطوفان ، الى حجر
« ايلودى » و « جوليين » و « تيفينان » . فامتلات بها العربة . .
وعاد كل منهم - فى ذلك المساء - الى داره وهو محمل
بالورد ، التى عطر عيرها نومهم ويقتتهم .

الفصل الحادى عشر



• فى صباح السابع من سبتمبر ، زارت المواطنة « روشمور » المحلف جاميلان فى داره ، لتوجه اهتمامه الى شخص من معارفها احاطت به الشبهات . . والتقت - عند درج الدار - بـ بروتو ديزيليت ، الذى كانت قد أحبته فى الإيام الهائشة . وكان « بروتو » بهم بنقل اثنتى عشرة « دسنة » (٦١) من الدمى التى ابتكرها . الى تاجر للعب فى شارع (لالوا) ، وقد شاء ان يبيع نفسه بقدر المستطاع فعلقوها فى طرف قسبة طويلة ، على نمط ما يفعل الباعة المتجولون . وكان بطبعه لطيفا مع النساء جميعا ، حتى

(٦١) « الدسنة » ١٢ وحدة .

اولئك اللاتي فترت جاذبيتهم له بطول المعرفة كما كان شأن مدام روشمور . . مع ان ما حف بها من غدر ، وبعاد ، وعدم وفاء ، وبدانة ، نال من اشتهاؤه اياها . وعلى اية حال ؛ فانه استقبلها على الدرج القدر ، ذى الاحجار المتفككة ؛ كما اعتاد ان يستقبلها في الماضي ، على درجات سلم قصر «ديزيليت» . وسألها ان تشرفه بزيارة مسكنه ، في المخزن القائم تحت سطح الدار . وتسلمت السلم المتنقل بخفة ، فألفت نفسها في «تخشبية» تحمل عروقتها الخشبية غير المتناسقة الطول ، سقفا من الاردواز ، تتخلله كوة . ولم يكن بوسع المرء ان يقف منتصباً ، فجلست على المقعد الوحيد في هذا المكان المعتم ؛ وبعد ان طاقت ببصرها بالآجر المتفكك ، سألته في دهشة وأسى : « أهنا تقيم ياموريس ؟ . . انك هنا بمأمن من الثقلاء والمتطفلين ، اذ لا سبيل لغير الشيطان ، او قطعة ، للعشور عليك هنا ! »

فرد عليها قائلاً : « ليس المكان فسيحاً ، ولا أكتمك ان المطر يصيب - احياناً - حصرتى . ولكن هذا لا يضايقنى كثيراً . ففي الليالى الصافية ، أرى القمر ، شبيه العشاق ، وشاهد غراميات البشر . اذ ان العشاق يا سيديتى ، يشهدون القمر - في كافة الازمان - على هواهم . . كما انه بوجهه الصبوح ، الشاحب ، المستدير ، يذكر العاشق بمشتهاه ! »

فقالت المواطنة : « صحيح ! » . . واستطرد بروتو قائلاً : « ان القطط تثير صخباً عذياً ، في هذا الركن المهمل ، في موسمها . ولكن من حق الحب ان نتسامح ازاء المواء والهرج على السقوف ، وان كان الحب يملأ حياة البشر بالوان العذاب والآثام ! » .

كان الاثنان من الحكمة بحيث تقاربا كأنهما صديقان
افترقا بالامس ، ليأوى كل منهما الى مخدعه . . وبالرغم
من انهما أصبحا غريبين - كل منهما بالنسبة للآخر - فقد
راحا يتسامران في تلاطف والفة .

وفي هذه الاثناء ؛ كانت مدام دى روشمور بادية القلق .
فان الثورة - التى ابتسمت لها طويلا وأجدت عليها ارباحا -
أصبحت تحمل اليها ما يشير شغلها وقلقها . وباتت حفلات
العشاء التى تقيمها أقل اشراقا وبهجة من ذى قبل . ولم
تعد أنغام قيثارتها تشيع الصفاء فى الوجوه المكفهرة .
وغاب كبار الاثرياء عن موائد الميسر عندها . . واختفى
كثيرون ممن كانوا مألوفين لديها ، اذ أصبحت الشبهات
تحف بهم . . وألقى القبض على صديقها المالى «مورهارت» ،
ومن آجله جاءت تستشير المحلف « جاميلان » . بل ان
الشبهات احاطت بها هى الاخرى ، فدهم الحرس الوطنى
مساكنها ، وقلبوا أدراج صواناتها ، ورفعوا ألواح ارضيات
غرفها ، ودقوا بالعصى حشيات فراشها ، فلما لم يعثروا
على شيء اعتذروا لها ، وشربوا نبيذها . ولكنهم كانوا جد
قريبين من اكتشاف مراسلاتها مع أحد المهاجرين ، وهو
السيد « ديكسبيللى » . وقد افضى اليها بعض اصدقاء لها
بين اليعاقبة ، بأن صديقها « هنرى » الجميل ، قد أصبح
موضع شبهات بفضائل اسرافه فى العنف ليظهر بمظهر
المخلص الوفى للثورة .

واعتمدت بذراعيها على ركبيتها ، وغاصت اصابعها فى
خديها ، وسألت صديقها القديم الذى افترش الحصير .
وهى شاردة الفكر : « ما رأيك فى كل هذا يا موريس ؟ »
- عين ما قلت حين سألتنى يا لويز - ذات يوم - ونحن

في مركبة على ضفة نهر (شير) ، تقلنا في طريق (ديزيليت)،
اذ شد الفرس العنان بين اسنانه ، وانطلق يجرى جامحا .
الا ما اشد فضول النساء !.. ها انتدى تسأليننى - مرة
أخرى - الى أين ننتقل !.. سلى في هذا اولئك الذين
يسحبون الورق . لست أقرأ الغيب يا صديقتى ، وليست
الفلسفة - في اكثر اشكالها حكمة - ذات عون في استطلاع
المستقبل . لسوف تنتهى كل هذه الاشياء ، كما انتهت كل
الاشياء قبلها . وبوسع المرء ان يرى للنهاية غدة أشكال :
انتصار التحالف ودخول الحلفاء بباريس . فهم غير بعيدين
عنها .. ومع ذلك فانى ارتاب في أنهم سيصلون اليها . ان
جنود الجمهورية تملكهم حمية لا قبل لشيء على اطفالها ..
وقد يقدر لروبسبير أن يتزوج مدام رويال (٦٢) ، ويعلن
نفسه حاميا للمملكة الى ان يبلغ لويس السابع عشر سن
الرشد !!

فصاحت المواطنة وقد ضايقها هذا التصوير الذى
يستهوئ الخيال : « اتظن ذلك ؟ » .. ولم يجب ، بل
استطرد يقول : « كذلك قد يمضى اقليم (فانديه) في ثورته ،
فيتوطد حكم القساوسة على انقراض الخراثب ، وعلى اكوام
الجثث . وليس بوسعك ان تدركى يا عزيزتى ، كيف يكون
حكم القساوسة لجمهور ((الحمير)) .. اردت ان اقول
((الانفس)) ، ولكن لسانى انحرف (٦٣) . والاكثر احتمالا
- فى رأى - هو أن المحكمة الثورية ستؤدى الى انهيار
نظام الحكم الذى اقامها . فهى تهدد رؤوسا كثيرة جدا ..

(٦٢) الملكة السابقة .

(٦٣) الأصل anes - أى حمير و âmes أى نفس . ومن هنا
نلمس المفارقة . زلة اللسان !.

لا حصر للذين تثير الرعب في نفوسهم ، وهم لن يلبثوا ان يضموا صفوفهم ، ولكي يهدموها سيهدمون نظام الحكم . وأظنك رشحت الشاب « جاميلان » لهذه المحكمة ، وهو فاضل ، ورهيب في الوقت ذاته . وكلما فكرت يا صديقتي الحسناء ، ازددت اعتقادا بأن هذه المحكمة التي انشئت لتنقذ الجمهورية ستقضى عليها . ولقد شاء المؤتمر الوطني - كما شاءت الملكية - ان يكون للجمهورية اعيادها ، وبرلمانها المليء بالحماس ، وسلطانها على الامن ، عن طريق مأمورين قضائين تعينهم ويكونون تابعين لها . ولكن ما أقل شأن اعياد المؤتمر بالنسبة لاعياد الملكية !.. وبرلمانه المتحمس أقل خوضا في السياسة من برلمان لويس الرابع عشر !.. ان محكمة الثورة يسودها شعور من العدالة الوضيعة والمساواة السطحية ، يجعلها أحيانا بغيضة ، سخيفة . نكره الناس جميعا . اتعرفين يا لويز ان هذه المحكمة التي ستستدعى للمثول امامها مائة فرنسا وواحد وعشرون من رجال التشريع ، قضت بالامس على خادم اتهمت بانها هتفت : « يحيا الملك ! » ، بسوء نية ، بغية هدم الجمهورية ؟ . ان قضائنا - بقبعاتهم ذات الريش الاسود - يعملون على طريقة ذلك الـ (وليم شكسبير) ، الذي يعتز به الانجليز ، والذي كان يقحم على أشد المناظر اثاره للاسى - في تمثيلياته - فكاهات سمجة ! »

الجزء الثاني يصدر بعد أيام فترقبه



يبدأ عامه الجديد بالعدد القادم (٩٧) حاملا
إليك باقة ممتازة من الملخصات لمجموعة من
أروع الكتب العالمية ، وفي مقدمتها كتاب العام :

رسائل فولتير الفرامية

عدد ممتاز - أوص البائع على نسختك من الآن .



الجمعية التعاونية للبترول

الطليعة التعاونية الأرواح

والقاعدة البترولية الهامة

٢٨ عامًا

في خدمة الاقتصاد القومي



بلاج المعمورة



● كباين وشاليهات معلقة تحوطها المياه الزرقاء
والخضرة الياضعة ، لمن يريد الاستجمار ..

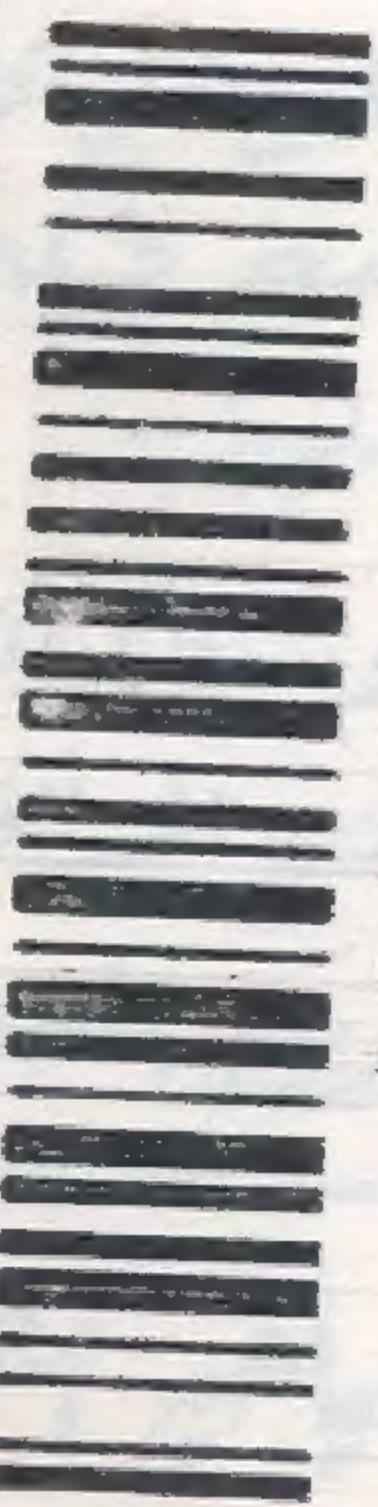
● قطع أراضي من تقسيم المع
طويلة الأهل ، لمن يريد
أنيقة أو مباحث استغلال

● وقد أعدت جميع المرافق من
والياه النقية والياه العكرة

فأسرعوا للتمتع بعمر



Bibliotheca Alexandrina



05559084



المؤسسة المصرية للتعمير والإنشاء

اسكندرية: ٢٧ طريق الجيش بالشاطبي القا

تليفون ٦٢٥١٥ / المعمورة ت ٦٢٨٤٠

تليفون ٤١٣٥٠